ذكريات

ذكَرياتٌ مُضحكة ، مُبكية

يوسف النملة

ناشرون

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في محرم،١٤٣٣/ديسمبر، ٢٠١١.

يمنع منعا باتاً نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

التدقيق اللغوي: سيعد الدوسري
الإخراج الفني: شيماء رضوان
تصميم الغلاف: أسماء الصيّاح

نبذة عن الكتاب

ذكريات شخصيّة .. كتبتها لغرضين .. نفث الخاطر .. واختصار التجربة والوقت عليك ..

ذكريات متنوعة .. حول العائلة .. والإعلام .. والقراءة .. والتعلّم .. والعبادة .. والابتعاث .. وغيرها ..

هي مضحكة لأنها لم تخلُ من مشاغبات الطفولة والشباب كتربية الطيور وتنظيم العصابات !! ..

ومبكية لأنه ترسم لك صورًا

لأحداث مؤلمة كفقد الوالدين واحتراق منزلي ..

أرجو أن تجد فيها ما يفيدك أو على الأقل يمتعك ..

.....

محتـــويات الكتـــاب

نبذة عن الكتاب ٢
المقدمة ٤
١. عندما ودعت أمي ٥
٢. كنت من هواة جمع الطوابع ٩
3. أيام الشتات ١٠
4. مع ابن عثيمين رحمه الله ١٥
5. مع العصابات !! ٢١
6. مع اللغة الإنجليزية ٢٦
7. مع الأطبّاء ٣٤
8. مع الكتب ٣٨
٩. مع التديّن النجدي ٤٢
١٠. مع الحريق ٤٧
11. مع قيادة السيارة ٥٣
12. مع قناة المجد ٦٢
١٣. مع طائر الببغاء ٧٠
14. مع العُبّاد وأصحاب القرآن ٧٥
15. مع الإلقاء ٨٣
١٦. عندما ودعت أبي ٨٨
يوسف النملة ٩٥

المقدمة

أيها الأخ .. أيتها الأخت ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

هذه ذكريات ذاتية شخصية ..

كتبتها في مُددٍ مختلفة .. وتحت ظروف متباينة ..

تشجّعت فيها وقلت ما أريد .. لا ما يريد الناس .. خصوصًا في وقت البعثة حيث لا أزال بعيدًا عن سطوة المجتمع التي قد تلتقط القلم من يدك لتكتب ما يريده الآخرون متجاهلة حق الفرد في نفث خواطره ..

إن قرأتم هذه الذكريات واستمتعتم بها .. فلا تنسوا عينين ترمقان شفاهكم علّها تتحرك بدعوة صادقة ينفعني بها رب الخلائق سبحانه في الدنيا والآخرة .. ..

.....

١. عندما ودعت أمي

بدأت أعراض المرض تلوح على وجهها الطاهر، مرض غريب لم يصبها من قبل، ولكنه لا يزال في مقدِّماته، أثناء صراعها مع ذلك المرض قررت – رحمها الله – أن تحج بيت الله الحرام ، تم ذلك – والحمد لله – ، وحين عودتنا من مكة تضاعف المرض عليها حتى أقعدها فلم تعد تفارق الفراش إلا لما لابد منه ، تم نقلها للمستشفى وأجروا الفحوصات والتحاليل وصرفوا العلاج، بعدها قرر الأطباء أن لا حاجة لبقائها في المستشفى، عندها عاد بها أخي لمنزل أختي – رحمها الله – ، فأخذت تحوطها بعناية وحرص شديدين، وكل يوم تزداد الحال سوءا ، ونحن بانتظار رحمة الله والشفاء منه – سبحانه– ، وفي أحد الأيام دخلتُ منزل أختي بعد الظهر عائدًا من الجامعة ، وكُلِّي أمل في أن أجد أمي أحسن حالاً من قبل، وإذ بي أشاهد أختي الكبرى متلفعةً بمُرط الصلاة ، شاحبة اللون ، خامدة الشعور، محاطةً بالهمِّ من كل جانب، فاستقبلتني بالترحيب ثم قالت: إن أمي أصيبت بإغماء صباح اليوم وذهب بها أخواك إلى المستشفى مرة أخرى، أمرتني بعدها بتناول الغداء ثم الراحة، وبعد العصر أذهب لزيارتها – رحمها الله– ، دخلت الغرفة ، جلست قليلاً ، فكّرت ، تأمّلت ، تذكرت أمي، ثم تساءلت مع نفسي ـ قائلاً : كيف أهنأ بالطعام وأمي تصارع المرض وتتجرع مرارته ؟ عندها قررت الذهاب لأمي ، حاولت أختي أن تثنيَني عن ذلك فلم تقدر، وفعلاً ذهبت فوجدت بعض إخوتي هناك في حال لا يحسدون عليها ، سألتهم : عن أمي ؟ فقالوا : في العناية المركزة . دخلت إليها مباشرة ، أزحت الستار، وجدت أمي ملقاة على السرير الأبيض، لا حراك، لا كلام، لا سمع، لا بصر، إنما يتحرك فيها جهاز التنفس الصناعي فقط، اقتربت منها ،كلمتها

لمستها، ضغطت يدها، ولكن دون أي استجابة، علمت بعدها أنها أصيبت بجلطة دماغية – والحمد لله –، استمرت – رحمها الله – على هذه الحال تسعة أشهر، وفي الشهر الخامس تقريبًا قرر الأطباء إخراجها من المستشفى لتعذر العلاج، فما كان منا إلا أن أحضرناها معنا للبيت ووفَّرنا كل ما يلزم لذلك ، سريرًا وكرسيًّا متحركًا وممرضةً وعلاجاتٍ ووو ... ، مرت الأيام ونحن نزورها كل يوم مرة أو مرتين دون تحسن أو تقدم يذكر، وإن نسيت فلن أنسى ذلك الموقف الذي أثّر بي حينما دخلت أزورها ليلة إعلان دخول شهر رمضان ، فوجدت عندها أحد إخوتي يبكي بكاءً مرًّا ؛ لأن الناس في تلك اللحظات كانوا يتبادلون التهاني والتبريكات بمناسبة حلول الشهر المبارك، بينما أمي – رحمها الله – في غيبوبتها لا تدري ما يدور حولها، استغل جميع الأهل هذا الشهر الكريم بالدعوات الصادقات لرب الأرض والسماوات أن يشفي والدتنا ويكشف ما بها ، حتى تعود لنا كما كانت، لاسيما وهي لنا الأم والأب بعد فقد أبي – رحمه الله–.

تصرّمت أيام رمضان حتى دخلت العشر الأواخر، عندها قررتُ الاعتكاف لأتضرعَ بين يدي الله ، في بيت من بيوت الله ، وأثناء تلبُّسي بعبادة من أعظم العبادات ، أن يشفي أمي – رحمها الله – ، ويسّر الله ذلك والحمد لله حيث اعتكفت العشر كلها فكنت أدعو لها صباحًا ومساء، في الفرض و النفل، وعند الإفطار ..

كنت أردد دائماً: (اللّهُمَّ اشف والدتي، اللّهُمَّ اجعل ما أصابها كفارة لذنوبها ورفعة لدرجاتها ، اللّهُمَّ أقِرَّ عيوننا بمعافاتها عاجلاً غير آجل، اللّهُمَّ اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك ، اللّهُمَّ إنه قد عجز الطبيب ، وحار المداوي، وأغلقت الأبواب إلا بابك يا كريم ، اللّهُمَّ أجب دعاءنا وحقق رجاءنا برحمتك يا أرحم الراحمين) .

ولا أزال أتصل وأسأل الأهل كل يوم : ما أخبار أمي هل تحسنت؟ هل خرجت من المستشفى؟ فلا أسمع إلا إجابة واحدة : الحمد لله ، الحال على ما هي عليه. انتهت العشر الأواخر من رمضان ، وأُعلن أن غدًا هو العيد ، عند ذلك لملمت أغراضي وودعت أصحابي وخرجت مسرعًا إلى المستشفى الذي أعيدت له أمي بعد أن تردّت حالتها قليلاً، خرجت يحدوني الأمل، ويضيق بي الطريق، ويحلق بي الخيال، خرجت ولسان الحال:

أنا قادم يا أمّاه ، أنا في أحر الشوق لرؤيتك وتقبيل جبينك ، أنا قادم وكلي أمل أن أراك أحسن من السابق، أنا قادم بروحٍ لا توصف، وبمشاعر فياضة ، وبنفس احتواها الرجاء ويحدوها الأمل، ثم أنصرفُ إلى ربي داعياً : اللّهُمَّ حقق لي ما أريد، اللّهُمَّ أسعدني برؤيتها سليمة معافاة .. وصلت المستشفى، أوقفت سيارتي ، قادتني رجلاي إلى أمي، دخلت بوابة الزوار ، توجهت لغرفة أمي ... ما هذا ؟ ماذا يحدث لي ؟ أحس بأمر غريب ، خوف، حزن، ضيق في الصدر، انزعاج ، توتر، ثم قلت لنفسي: لا .. لا .. هذه أوهام ووساوس فلا تلتفت إليها ، دخلت الممر الذي فيه غرفة أمي فشاهدت زوج أختي واقفاً على باب الغرفة يتلفت يمنه ويسرة في ذهول عجيب، فلما رآني تبسّم ابتسامة لم تتجاوز شفتيه !!

دخل مسرعًا وأخبر أختي بقدومي، ثم خرج وسلمّ علي، ثم خرجت بعده أختي تمشي مشية المستسلم الضعيف وحالت بيني وبين الدخول ، ثم مدّت يدها نحوي قائلة: أهلاً يوسف، أمي بخير، أردت الدخول فوقفت مكانها في منتصف الباب ثم قالت: الحمد لله ، أمي ارتاحت ؟؟؟ !!! ظننت أنها تقصد ارتاحت من صعوبة التنفس الذي كانت تعاني منه، لكن سرعان ما ردت العبارة مرة أخرى قائلة: أمي ارتاحت من المرض، أحسن الله عزاءك، أمي انتقلت إلى جنات النعيم لتعيش العيد هناك، فغدا عيد الفطر أول يوم لها من أيام الآخرة، انبهرتُ، وقفتُ مكاني، تسمّرتْ قدماي، أطرقت، تركّز نظري في الأرض، ثم رفعت رأسي ... بدأ الكون يتغير من حولي، تغير الهواء الذي كنت أستنشقه قبل قليل .. أنكرتُ نفسي .. أنكرت ما قالته أختي ... أمي ماتت ؟ معقول ؟ متى ماتت ؟ وكيف ماتت قبل أن أراها ؟ معنى ذلك أنني لن أؤمل بشفائها بعد اليوم ، لأنها ماتت.

بعد ذلك كله أفقت من هذا الشعور لأصارح نفسي قائلاً :

نعم ... أمي ماتت كما مات محمد – صلى الله عليه وسلم – ، لقد جرت عليها سنة الله في المخلوقات ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، نعم ماتت أمك يا يوسف، ولن تراها في الدنيا بعد اليوم، فأعانك الله على ما بقي من برِّها، وبعد هذه المصارحة الذاتية لم تقلني قدماي،

ذهبت لأقرب كرسي ، جلست عليه، وبدأ البكاء والنحيب بشكل غريب، أبكي وأنا أقلب صفحات حياتي مع أمي، وأخاطب نفسي مؤنباً:

أتذكر يا يوسف يوم أنك أغضبتها ؟ أتذكر يوم أن عصيت أمرها ؟

أتذكر يوم طلبت منك كذا وكذا فاعتذرت منها ووليت ذاهباً لا تدري هل قبلت عذرك أم لا ؟

جلست أبكي، وبكل دمعة تخرج من عيني تعصر قلبي عصراً، حتى علم بحالي الموظفون في ذلك الجناح، فجاء بعضهم يهون عليّ بكلمات لطيفات ومشاعر صادقات.

واستمرت المعاناة بعد أمي بما يضيق عنه المجال، والحمد لله على كل حال، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.

إيه أيتها الدنيا ما أحقركِ وأهونكِ، والله ما هانت عليّ الدنيا في يوم مثل ما هانت في ذلك اليوم الذي فقدت فيه أمي، ولا أزال إلى الآن وإلى أن يشاء الله أنتظر لقاء أمي بشوق عظيم.

اللّهُمَّ ارحم والديّ واجمعني بهما في جنات النعيم وجميع موتى المسلمين .. آمين.

.....

٢. كنت من هواة جمع الطوابع

لما كنت صغيرًا ... كنت أهوى أمورًا كثيرة .. مثل قراءة الألغاز! .. تلخيص المناهج الدراسية !، الشعر، القصة .. وكلها انتهت في فترة وجيزة وانتهت معها ذكرياتها الجميلة... إلا أن هواية عجيبة تعلقت بها زمنًا ثم تركتها دون توديع أو أسف عليها ... ولا أكتمكم الحديث إن قلت إنني أستحي من نفسي كلما تذكرتها ... هواية جمع الطوابع.. عجيبة تلك الهواية فمنذ أن بدأت بها حتى انتهيت وأنا أدفع المال مقابل الحصول على الطوابع ... ثم ماذا ؟؟ لا أدري.

هناك جهات خيرية وحكومية ومواقع إنترنت تخدم هذه الهواية العالمية – كما يقولون – والسؤال الذي يهمني الآن : ما النتيجة وما المحصّلة من هذه الهواية ؟

ولا أنكر أن لهواية جمع الطوابع فوائد .. لكن أزعم أنها قليلة جدًا ، لا تستحق الجهد المبذول لأجلها، كان سبب تعلقي بالطوابع هو متابعتي النهمة لمجلة ماجد .. تلك المجلة التي لا أبالغ إن قلت إنني أحببت القراءة والكتابة بسببها .. ولا زلت أتصفحها في المحلات الكبيرة على استحياء أحيانًا ...وبتبجّح أحيانًا أخرى!!

أحببت تلك الهواية وقتها فصرت أجمع الطوابع بنهم وأضعها في ألبوم شفاف وأقلب النظر فيها كل ساعتين تقريبًا ... حتى مللت من الجمع وخسرت قدرًا من المال!! فاهتديت إلى استخدام الحيلة لممارسة تلك الهواية وهي أنني صرت أقص صور الطوابع من المجلات والجرائد وأضعها في ذلك الألبوم!!! وبعد فترة من الزمن تكونت لدي مجموعة ضخمة من الطوابع الأصلية والمسروقة!! ..

واصلت ذلك حتى مللت من تلك الحيلة فتطوّر التحايل – والحمد لله– بأن طلبت من ابن أخي أن يجمع لي أكبر قدر مكن من الطوابع .. بالتأكيد كان بمقابل .. لكل خمسة طوابع أصلية أو مسروقة ريال واحد !!

ولا أدري كيف أصف هذه الهواية التي تحولت إلى عبءٍ يقلقني ويكدر مزاجي ...

مرت الأيام تلو الأيام حتى تناسيت تلك الهواية بالقوة .. وضاع كل ما جمعته من الطوابع، ولم أبحث عنه حتى لحظة كتابة هذه الأسطر ... والحمد لله أنني انتقلت بعدها لهواية أخرى لا تزال معي وستستمر بإذن الله وهي القراءة مع قليل من الكتابة.

.....

٣. أيام الشتات

أقصد بهذه الأيام الفترةَ التي قضيتها بين بداية مرض أمي – رحمها الله – إلى زواجي ..

فعلاً كانت أيام شتات ...

وقبل أن أذكر ما فيها ...

دعوني أتنهد قليلاً ثم أقول : الحمد لله ..

والله إن نعم الله تعالى عليّ لا تحصى ...

تلك الفترة كانت قرابة السنة أو أقل قليلاً ...

كانت أمي في غيبوبة كاملة ..

وكنت أزورها بالمستشفى باستمرار وفي أيام كثيرة كنت أذهب لها مرتين في اليوم ...

أقف عند رأسها وأدعو لها وأقرأ عليها ثم أعود أدراجي لحياتي الخاصة ...

كنت أحيانًا أخرج من المستشفى فأركب سيارتي وأمشي بسرعة لا أقول جنونية بل أشد من ذلك ..

وكنت أقول في نفسي :ولمَ الخوف ؟ أأخاف من حادث أو انقلاب سيارتي ؟؟ ليكن !!

هذا ما كان يحصل ..

وأستغفر الله العظيم من تلك الحال التي مررت بها لأنها كانت حالة جزع ويأس ...

أعوذ بالله من ذلك ..

مرت عليّ أيام لا أجد فيها قيمة وقود السيارة ...

لأنه لم يكن لي مصدر دخل إلا مكافأة الكلية التي لم تُصرف في وقتها المحدد قط ..

سأروي لكم تلك الأحداث مع تقديم وتأخير في تأريخها لأني لا أذكرها بالترتيب ..

أذكر مرة أنني طلبت من أختي التي كنت مقيمًا عندها مبلغًا من المال فكان جوابها جافًا جدًا على غير العادة قالت لي:

(أنا ما عندي شيء .. لا تطلب مني مرة ثانية .. سأعطيك مئتي ريال فقط وسآخذها من أخيك فلان!!).

لا أعرف إلى الآن لماذا تعاملت معي هكذا ..

لكن أظنكم ستدركون بعد قليل أمرًا ربما يكون هو المؤثر عليها حين قالت لي ذلك الكلام ...

دعوني أحدثكم عن أختي هذه التي عشت عندها بعد وفاة والدتي ..أختي (مزنة) - رحمها الله - عشت عندها فترة ليست بالقصيرة فلم تقصّر علي بشيء أبدًا .. - رحمها الله – مرت عليها أعظم المصائب .. الطلاق أكثر من مرة .. وفاة الأب ...

وحصل لها أن توفي ابنها ذو الثمانية أعوام بحادث سيارة .. وماتت أمي -رحمها الله- في المستشفى أمام ناظريها أو قبل أن تحضر بدقائق ... ابنها البكر (أنس) حصل له حادث سيارة شنيع آلمها قبل أن يؤلمه ..

كانت أختي مزنة أيام في شبابها متفوقة في الدراسة ..

تقول والدتي : إنها أصابتها بعد ذلك (عين) ... أختي (مزنة) - رحمها الله - ختمت مصائبها بالسرطان الذي قضى عليها في خريفها الرابع والأربعين .. تاركة خلفها خمسة أطفال : ثلاثة ذكور وطفلتين وأبشركم أنهم الآن بخير وعافية - والحمد لله- ..

نعود لأيام الشتات ..

من أصعب ما مر عليّ في تلك الأيام هو أنني لم أجد الراحة في بيت أختي طرفة عين ..

.. كنت أختلس الوقت وأحن لبيتنا الذي كنت أعيش فيه مع أمي -رحمها الله-

كنت أنام في بيتنا في حي الربوة لوحدي أحيانًا ..

وأذكر مرة أنني كنت وسنانَ فخُيِّل لي بعض الأشباح من خلال النافذة ..

ثم أحسست بأيدٍ تخنقني وأصوات مثل ضرب الدفوف فوق رأسي ..

والحمد لله أنني استطعت أن أقوم وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ..

ثم أحضرت المسجل ووضعت فيه شريط سورة البقرة للشيخ محمد أيوب فنمت بعدها نومًا هانئًا ..

لكن رجَعَت تلك الكوابيس في الليالي اللاحقة .. فقررت بعدها أن أترك النوم في البيت .. فكنت أنام في المسجد .. أو أذهب لبيت أختي حين لا أجد أي نشاط فأدخل وأستسلم للنوم مباشرة ...

كنت في تلك الأيام .. أتغدى وأتعشى في المطاعم ..

والحمد لله لا أذكر مطعمًا شهيرًا في شرق الرياض إلا مررت عليه !!

قبل أن يُقعد المرض أختي (مزنة) -رحمها الله- طلبت مني أن أذهب بها لمكة المكرمة...

فذهبت بها .. ثم طلبت مني أن يقرأ لها أئمة الحرم في ماء زمزم ...

والحمد لله قرأ لها الشيخ صالح بن حميد والشيخ عبد الرحمن السديس والشيخ عمر السبيل - رحمه الله - ..

ولم أجد منهم إلا كل تواضع واحترام – جزاهم الله كل خير–

من المواقف التي لا أنساها قبل وفاة أمي أنني مررت بأيام صعبة

جدًا فلم أستطع الدراسة ففكرت في تأجيل دراستي الجامعية ..

لكني تريثت وقلت إن مرض والدتي لا يُعلم متى سينتهي ..

ولا أعلم كذلك متى سيأخذ الله أمانته وترتاح أمي ..

فأخشى إن أجّلت هذا الفصل الدراسي أن أؤجل الفصل الذي يليه وهكذا ..

لكن الله عز وجل الرحيم بعباده هداني لفكرة كانت غائبة عني وهي أنني اغتنمت جاهي فاستفدت كثيرًا – والحمد لله – بحثت عن أكثر الأساتذة تأثيرًا في كلية الشريعة وأكثرهم احترامًا من قِبَل الأساتذة فوجدته الشيخ محمد بن أحمد الصالح – جزاه الله كل خير– وكان ولا يزال يحب أخي عليًا حبًا لا يُتصور ..

ويكرر كثيرًا مقولته: (إن علي النملة وإبراهيم الجوير بالنسبة لي كالماء والهواء).

ولعلي انتهزتها فرصة!! فطلبت من أخي علي أن يكلمه ليشفع لي عند أساتذتي فيراعوا ظرفي.. والحمد لله فعل ذلك ... ولقيت من أساتذتي كل مواساة جزاهم الله خيرًا ..

حتى إن بعضهم كان يسألني عن والدتي كلما قابلني في ممرات الكلية ..
من الأصدقاء الذين لا أنسى فضلهم عليّ أخ لطيف اسمه متعب .. كان كلما قابلني سألني عن والدتي ووجه يتمعّر ويكاد يبكي ..
وقتها كنت أحس أن متعب أخي الشقيق ..
وكان لا يفارقني إلا بعد أن يدعوَ لأمي بدعوات صادقات ..
وفقه الله في الدنيا والآخرة ..
قُدِّر لي في تلك الفترة أن أذهب للشيخ ابن عثيمين رحمه الله وأسكن مع طلابه مدة شهر كامل ..
الأيام التي قضيتها عند ابن عثيمين – رحمه الله – هي أجمل أيام حياتي ..
كنت أحضر دروسه الصباحية والمسائية وكنت أمشي خلفه وأسأله حتى يصل إلى منزله ثم أعود ..وكنت أحضر لقاء الباب المفتوح في منزله - رحمه الله - .. وعندي من الفوائد والمواقف مع الشيخ مالا يحصر ولا سيما أنني قرأت جميع كتبه تقريبًا واستمعت لعدد كبير من دروسه المسجلة ..
وكان من نتاج تلك الرحلة أنني تعرفت على شباب طيبين لا أزال على صلة بهم إلى الآن والحمد لله ..
وكثيرًا ما تسعفني اختيارات الشيخ في مواقف ومجالس أُسأل فيها عن بعض الأحكام .. فأنقل رأي الشيخ دون أن أفتي وأتحمل تبعة ذلك ..
والحمد لله لديّ إحاطة شبه تامة باختيارات الشيخ خصوصًا في العبادات ...
تركت عنيزة لأن حالة أختي الصحية قد ازدادت سوءًا ..
فكنت أقرأ عليها وأُحضر بعض المشايخ ليَرقوها كل يوم ..
ولكن قدّر الله سبحانه أن لا تبقي طويلاً في هذا الدنيا ..
فارتحلت إلى ربها الكريم الرحيم ..

.....

٤. مع ابن عثيمين رحمه الله

ابن عثيمين .. اسم لرجل عظيم .. توافقت الطباع السليمة على احترامه ..رجل اجتمعت فيه صفات كثيرة ، عالم شرعي ، حافظ للقرآن ، صاحب خلق عالٍ جدًا ، ناصح للمسلمين ، متواضع ، زاهد ، أديب ، لغوي ، ورِع ، باذل نفسه لكل أحد ، تقي ، معلم من الدرجة الأولى ، حاد الذكاء ... إلخ.

تعرفت على ابن عثيمين حين كنت طفلاً صغيرًا في السادسة أو السابعة من عمري ، وقتها كان يلقي دروسه في سطح المسجد لما كان من الطين ..فقد كان بعض إخوتي يذهب إليه لحضور بعض دروسه أحيانًا وللاستفتاء والسؤال أحيانًا أخرى .. زاد قربي من ذلك العالم الجليل حين التحقت بالمعاهد العلمية فتتلمذت على كتبه مثل : تنبيه الأفهام بشرح عمدة الأحكام ، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية ، ومصطلح الحديث ، وغيرها ، ثم صرت أقتني دروسه المسموعة ، وأعكف عليها في البيت حتى أنهيها ، أذكر منها : شرح المقدمة الآجرومية في النحو ، شرح العقيدة الواسطية ، شرح كتاب المعاملات من زاد المستقنع ، شرح العقيدة التدمرية ، فتاوى الصيام والحج وغيرها .. وأذكر مرة أنني كنت أستمع لأحد دروس الشيخ في منزلنا ، وعندي والدتي - رحمها الله - ، فجاء أحد إخواني وجلس مع والدتي فتحدثا قليلاً ثم قالت له : (والله يا يوسف هذا يموت بابن عثيمين موت !!) .. وصدقت رحمها الله ..

بعدها أصبحتُ أحضر دروس الشيخ رحمه الله بشكل شبه يومي حين كانت والدتي رحمها الله تذهب لمسقط رأسها (البكيرية) كل صيف .. فأذهب آخر العصر لعنيزة و أمكث في المسجد حتى نصلي المغرب فيلقي الشيخ درسه ثم أخرج معه بعد صلاة العشاء وأتبعه حتى يصل إلى منزله .. أسأله وأستمع لإجاباته للمستفتين ..وتطور الأمر والحمد لله، فذهبت بعد تخرجي إلى عنيزة وسكنت مع طلاب الشيخ مدة شهر كامل .. حتى

اضطرتني الظروف للعودة للرياض ، وقد ذكرت تلك الظروف في ذكريات أيام الشتات ...

محمد بن صالح بن عثيمين .. عالم ملأ الدنيا وشغل الناس بالعلم ..

..

سأروي هنا بعض المواقف اليسيرة التي كانت لي مع الشيخ رحمه الله ..

..

مرة كان الشيخ خارجًا من المسجد بعد صلاة الجمعة .. وقد تحلق حوله خلق كثير يسألونه ويستفتونه .. فلما دلف مع الباب الخارجي للمسجد جاءته طفلة صغيرة فقيرة تسأله شيئًا من المال بكل براءة الطفولة .. فما كان منه رحمه الله إلا أن توقف بسرعة وأخرج محفظته وأعطاها ريالاً ثم ابتسم في وجهها ومسح على رأسها .. فرحت الطفلة بالريال وذهبت لأمها وأعطتها إياه وهي تقول : الريال من الشيخ .. من الشيخ .. والناس يرقبون الموقف ويتعجبون.

ومرة خرج من صلاة الجمعة أيضًا .. فاستوقفه رجل غليظ في تعامله وقوله .. وسأل الشيخ عن مسألة في المعاملات المالية .. فقال الشيخ هذه المسألة اختلف فيها العلماء المعاصرون .. وقبل أن يكمل الشيخ كلامه قاطعه ذلك الأعرابي وقال : (طيب وأنا ماذا أفعل .. أفعل كذا أم كذا علمني وضّح لي) فابتسم الشيخ وقال : (الذي أراه في تلك المسألة هو التحريم) ... فقال ذلك الأعرابي : (ونحن ماذا نصنع ؟ إذا كان حرام كيف نتخلص ونحن لا نقدر ؟) فما كان من الشيخ إلا أن وضح له كل ما يريد بنفس هادئة وروح طيبة راضية.

جلس رحمه الله مرة لإلقاء الدرس ثم طلب كأسًا من ماء فذهب أحد طلابه وأحضر الماء فلما انتهى الشيخ من الشرب قال لذلك الطالب :(لمن الكأس) ؟فقال الطالب : (لحارس المسجد) . فقال الشيخ : (خذه فأعده إليه الآن قبل أن نبدأ بالدرس) !!

كنت أمشي خلفه بعد صلاة العشاء متوجهين لمنزله وكنت أحاول الاقتراب منه رحمه الله لأسمع أجوبته على أسئلة المستفتين وفجأة (دعستُ) على حذائه من الخلف فتعثر الشيخ

وكاد أن يسقط !! ثم أكمل سيره رحمه الله دون أن يوبخني بل لم يلتفت للخلف ليرى من فعل ذلك.. وكنت وقتها أظن أن الشيخ سيتوقف ويلتفت إليّ ثم يوبخني أشد توبيخ.

ذات يوم مشيت معه بعد صلاة الظهر حتى وصل البيت منهكًا من حر الشمس الشديد فتفاجأ بأن هناك أشخاصًا ينتظرونه قدموا من خارج عنيزة دون موعد سابق .. فاستقبلهم ورحب بهم وطلب منهم الدخول لمنزله وتناول طعام الغداء، فاعتذروا وقالوا :أتينا للسلام عليك فقط ونحن مسافرون. فقال الشيخ : (طيب خذوا هذه) وحاول إخراج مائة ريال (اشتروا فيها غداء لكم) ..فاعتذروا منه وقبّلوا رأسه ثم انصرفوا، الذي شدني في ذلك الموقف أن الابتسامة لم تفارق وجه الشيخ أبدًا !!

تم تعييني قاضيًا في تلك الأيام فأظلمت عليّ الدنيا وذهبت للشيخ أخبره بذلك وليس لي هدف إلا أن أحظى بكلمة مواساة أو تأييد منه رحمه الله .. فلمّا أخبرته قال مباشرة: (الله يبشرك بالخير) !! مع أنه رحمه الله لم يكن يعرفني مثل ما يعرف طلابه المقربين، فقلت له : (يا شيخ أنا أتيتك لتعزيني) !! فقال :(لا والله أنا أهنئك على ذلك). ثم سألني: (هل أنت طلبت القضاء أم أتاك من غير مسألة ؟)قلت : (بل أتاني من غير مسالة ولا أريده) !!قال : (إذن سيعينك الله .. توكل على الله ولا تتردد وتذكر قول الله تعالى : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله(ص ٢٦). والحمد لله .. علم الله أن فيّ ضعفًا فأعفيت من القضاء بعد تلك الحادثة بأيام.

مرة كنت ذاهبًا لصلاة الفجر مع أحد طلاب الشيخ .. فتفاجأت بالشيخ واقفًا قريبًا من المسجد يراجع القرآن الكريم .. وكان لا يدخل المسجد حتى ينهي حزبه .. فسلمنا على الشيخ بصوت خافت وأكملنا المشي .. فنادانا الشيخ مغضبًا وقال :(لماذا لم تسلما ؟) .. نحن حقيقة سلمنا على الشيخ ولكنه لم يسمعنا .. ومنعنا الحياء وهيبة الشيخ من أن نرد عليه ونقول له نحن سلمنا يا شيخ .. فألجم علينا ولم ننطق ببنت شفة .. عندها أخرج الشيخ ورقة من جيبه وقال: (اكتبوا أسماءكم هنا ، ولو تكررت منكم مرة أخرى فسوف نفصلكم من سكن الطلاب !!) ثم كتبنا أسماءنا .. وبعدها قال: (سلموا على

الناس، لا يصير الواحد مثل الخشبة !!) بعدها بيوم واحد فقط رأيت الشيخ واقفًا مع بعض المستفتين بعد صلاة الظهر فاقتربت منه وقلت بصوت عالٍ : السلام عليكم . فرد عليّ السلام بمثل ذلك الصوت وهو ينظر إلي ويبتسم .

حضرت مجلسًا ذات مساء .. وكان يتكلم فيه أحد المثقفين عن القرآن الكريم .. وكان حافظًا لكتاب الله تعالى .. فلما أراد أن يشرب قال : (استأذنكم في أن أشرب من هذه الكأسة) ، ثم قال: (لفظة كأسة أفصح من كأس في لغة العرب) .. فلما انتهى من الشرب قلت له: (كيف تكون لفظة كأسة أفصح من كأس والذي ورد في القرآن لفظ كأس، ولم يذكرها الله تعالى بلفظ كأسة؟) فقال لي: (القرآن فيه الفصيح والأفصح وهناك كلمات خارج القرآن أفصح مما في القرآن!!) .. بعدها بأيام ذهبت إلى الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ وذكرت له الحادثة فاستغرب هذا الكلام وقال: (صعبة .. صعب نقول هذا الكلام). فقلت له: (يا شيخ أرجو أن تحيلني إلى كتاب حتى أبلّغ ذلك الأخ بالرأي الصواب). فقال: (راجعني لاحقًا) فراجعته أكثر من مرة ولم أجد ما أريد حتى استحييت من كثرة ما أتردد عليه .. وبعد أشهر من تلك الحادثة حضرت عند الشيخ محمد رحمه الله وفي نهاية الدرس حكيت له تلك الحادثة فقال رحمه الله: (إذا سمعت من يقول مثل هذا الكلام و يدعي أن في القرآن فصيحا وأفصح مثل كأس وكأسة فأحضر كأسًا من الماء الحار جدًا و (انثره على وجهه !!) ثم ضحكت وابتسم الشيخ .. ثم قال: (أبدًا ليس بصحيح هذا الكلام ،كل ما في القرآن أفصح مما هو خارج القرآن) وحدث أن التقيت بالشيخ الأستاذ الدكتور إبراهيم الهويمل وناقشته في المسألة بشكل موسّع .. فكان خلاصة ما قاله أن هناك من أهل اللغة من يرى ذلك ويتحمس له بقوة .. لكن الراجح ما قاله لك الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -.

في إحدى المرات دعانا أحد الجيران في الرياض لمناسبة عشاء وقال سيحضر الشيخ ابن عثيمين .. ففرحت جدًا وكنت أول الحاضرين فحضر الشيخ وتكلم وأجاد وأفاد ثم حضر العشاء .. فكان أحد الحضور يقطع اللحم ويضعه أمام الشيخ .. فأعاد الشيخ اللحم له وقال: (حنا يا أهل الشمال - ولعله يقصد شمال الرياض - ما تعوّدنا على هذا

لأن عندنا مثل يقول : كل طير يأكل بمنقاره) وبعد قليل فعل ذلك الرجل مثل ما فعل في المرة الأولى فأعاد الشيخ اللحمة إليه وقال بغضب: (سبحان الله) .. فاستحيا ذلك الرجل وتوقف عن تقطيع اللحم للشيخ ..ولما أراد الشيخ الخروج من البيت مسكه أحد الحضور وألحّ عليه بشكل محرجٍ جدًا أن يتغدى عنده .. فلما لم يستطع الشيخ التخلص منه قال له الشيخ: (هل توافق أن أتغدى عندك في الغد؟) فقال الرجل: نعم نعم .. وكان فرحًا، فقال الشيخ: (إذن آتيك في الغد إن شاء الله) .. ثم التفت الشيخ إلى أحد الحضور وقال: (كلمة غد إذا أضيف لها الألف واللام فأنها تعني إلى قيام الساعة ولا تعني اليوم الذي يعقب هذا اليوم) .. فضحك الحضور وخرج الشيخ من المنزل بسرعة ، كانت هذه الحادثة في أول أيام مرضه - رحمه الله -.

تواترت الأنباء أن عالم المسلمين ابن عثيمين أصيب بالسرطان ، وكان الشيخ يسميه المرض الخطير ولا يعجبه أن يقال الخبيث، ويقول: (ليس في أفعال الله تعالى خبيث) .. وأصبحت حالة الشيخ الصحية تضعف بشكل متسارع وكان الناس يدعون له ، أذكر أن الشيخ عبد الله المطلق كان يدرسنا مادة الفقه في المعهد العالي للقضاء، ومرة كان يشرح الدرس بحماس شديد ثم سكت برهة وقال: (اللّهُمَّ اشف الشيخ محمد ابن عثيمين) واستمر يدعو والطلاب يؤمنون. ولما ضعف الشيخ كثيرًا تم تنويمه في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض وبعدها في جدة فذهبت لزيارته لما كان في الرياض .. وكان الطابق الذي فيه الشيخ مزدحمًا بالناس .. فوقفت مع الناس للسلام عليه، وكنا على هيئة صفوف (طوابير) وأثناء الانتظار همس بأذني أحد الشباب وقال: خلفك وزير المعارف. فالتلفت وإذا بالدكتور محمد الرشيد يقف خلفي فسلمت عليه وقدمته، ولما وصلنا للشيخ سلم الوزير على الشيخ وقال له: (أبشر- يا شيخ محمد كل الناس يدعون لك) فشكره الشيخ ودعا له، بعد ذلك سلمت على الشيخ ودعا لي ثم انصرفت .. ومن رأى الشيخ وهو في تلك الحال علم أن أجل الشيخ قد اقترب – والعلم عند الله - لأنه كان أشبه بهيكل عظمي مستلقٍ على السرير، وأذكر صورة ذراعه لما صافحته فقد كان نحيلاً جدًا جدًا، كان كما يقال : جلد على عظم.

دخلت المسجد لأصلي المغرب يوم الأربعاء ١٥/ شوال/ ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠١/١/١٠م فقابلني أحد الفضلاء وقال: (أحسن الله عزاءك)!! فقلت: (بمن)؟ فقال: (بالشيخ ابن عثيمين .. توفي قبل قليل). فقلت : (الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون) .. ولا أكتمكم إن قلت إنني كنت متوقعًا هذا الخبر في أي لحظة، ولكني لما سمعته كان كالصاعقة، حيث أظلمت الدنيا عليّ وأصبحت أتذكر دروس الشيخ ومسجده وفتاويه وطلابه الذين أصبحوا أيتامًا و أتذكر عنيزة المكلومة، والأمة الإسلامية الحزينة على فراقه ... .. وأذكر أنه وقتها كان لديّ اختبار نهائي يوم السبت فلم أستطع الاستذكار، فلما خرجت من الاختبار أخذنا نحن الطلاب نتبادل التعازي وكان الشعور مشتركًا حيث لم تكن إجاباتنا في الاختبار موفقة، فذهبنا لمدرس المادة وهو العالم الأصولي يعقوب الباحسين ، وأخبرناه بما لقينا من فقد الشيخ فقدر موقفنا وتعاون معنا كثيرًا.

الحمد لله على قضائه وقدره ، ورحم الله العالم النادر ابن عثيمين وأسكنه فسيح جناته .. وسأظل بإذن الله أدعو لابن عثيمين وأتصدق عنه ما حييت.

.....

٥. مع العصابات !!

العمر : ١١ سنة ..

المرحلة : خامس ابتدائي ..

كنا نسكن في حي الملز .. ذلك الحي الذي كان يضفي وجاهة لساكنيه .. كنا نفاخر إلى حد ما بأننا من سكن حي الملز لأننا كنا قبل ذلك نسكن في شارع الريل !! وكل إناء بما فيه ينضح ..

شارع الريل لا أتذكر فيه أي شيء .. لأن أهلي انتقلوا عنه وأنا ابن سنة تقريبًا ..

أما حي الملز .. فعشت فيه قرابة تسع أو عشر سنوات والتي كانت كفيلة بصقل موهبة (العفرتة) لدى أي طفل تفتّحت عيناه على تلك الأجواء .. أعني أجواء حي الملز!!

كيف لا أتعفرت والشارع الذي كنا نسكن فيه وهو شارع صيتة كان ميدانًا للتفحيط ..

كيف لا أتعفرت .. وقد كان أخي وليد يعلمني كيف نسرق سيارات إخواني في (عز القايلة) .. ثم نتمشى بها في الحارة لمدة لا تتجاوز أربع دقائق ..

كيف لا أتعفرت .. وقد صاحبت بعض الجيران الذين تفر منهم الشياطين لا كفرارها من عمر رضي الله عنه ..

كيف لا أتعفرت .. وقد كان يسكن في الدور العلوي فوقنا أناس غير سعوديين .. وكنا نحن الأطفال نسومهم سوء العذاب لأنهم غير سعوديين!

كيف لا أتعفرت .. وأنا أصغر العائلة .. و قد كان الجميع تقريبًا (سبعة إخوة وأختان إضافة إلى الوالدين رحمهما الله) يمارسون عليّ تجاربهم التربوية من صفع للوجه وركل

للمؤخرة واستخدام (لِيِّ) أحيانًا .. مرورًا برمي فنجان القهوة على الرأس أثناء قهوة المغرب .. كل ذلك كان بدافع التربية!

كيف لا أتعفرت .. وقد كنت أمضي بعض الأوقات فوق أسطح الملاحق .. ووقتها لم نبخل بأذية الجار بل والتفنن في ذلك ..

كيف لا أتعفرت .. وقد سمعت يومًا أن البلدية تجمع النفايات في حاويات خاصة ثم تحرقها في مكان ما .. فوفرت عليهم ذلك وأحرقت جميع (زبايل الحارة) أمام بيوت أصحابها!!

كيف لا أتعفرت .. وقد أخذت مرة حبلاً رفيعًا وربطته بين عمودين على جانبي ملعب كرة القدم القريب من بيتنا وكان على ارتفاع مستوى حد الرقبة .. فكان كلما مر عليه أحد الشباب جاريًا وهو يلعب كرة القدم خنقه ذلك الحبل حتى يكاد يموت!!

كيف لا أتعفرت .. وقد أشعلت مرة مفرقعات (شرخ كبير جدًا) داخل ردهة المنزل أثناء تواجد العائلة .. والذي بدوره جعلهم يتذكرون شيئًا من أهوال يوم القيامة .. لكن (زبيرية) الوالد رحمه الله طيبت خاطر كل من فزع أو غضب !!

كيف لا أتعفرت .. وقد كنت أرتكب الجرم ثم أختبئ في (الدولاب) لمدة يوم كامل .. وحينما عُرف المخبأ بدأت أرتكب الجرم كما كنت أفعل تمامًا ثم أنطلق إلى دورة المياه لأستحم في مدة لا تقل عن خمس ساعات حتى يهدأ الجو العام !!

كيف لا أتعفرت .. وقد كنت سفاح الدجاج الذي كنا نربيه في بيتنا و لاسيما المريض منه أو من شارف على الهلاك .. أذكر مرة أنني قطعت رقبة ديك بالسكين فقام الديك يركض في الحارة دون رأس .. فبدأ أخي وليد يردد مرعوبًا: بسم الله .. بسم الله .. بسم الله .. وأنا أضحك!!

كيف لا أتعفرت .. والحال كهذه ؟

في تلك الأجواء كان من المتوقع أن أنقل بعض التجارب إلى مدرسة المروة الابتدائية التي درست فيها السنة الخامسة والسادسة .. حيث انتقلنا إلى حي الربوة ..

اجتمعنا مرة في الفسحة وكنا خمسة طلاب في الصف الخامس .. فقلت لهم:

لماذا لا نؤسس عصابة؟

البعض ضحك والآخر (نشف ريقه) !! وفريق ثالث أعجبته الفكرة ..

فأعدت السؤال عليهم وقلت: يا شباب .. نحتاج أن نؤسس عصابة تجمعنا نحن الخمسة ونسميها عصابة العنكبوت؟

قال بعضهم: لماذا عصابة .. ما الغرض منها؟

عندها لم يكن لدي جواب .. لأن المقصود كان وجود عصابة لأي غرض !! .. لكن ما الغرض من ذلك .. حقيقة لم أفكر فيه .. فقلت لهم من باب كسب الموقف: الغرض من هذه العصابة هو أن نكون يدًا واحدة على من يعتدي على أي واحد منا .. وبعد تفكير ومشاورات لمدة ثلاث دقائق وافق الجميع ..

ثم انتقلت لطرح الهيكل التنظيمي فقلت لهم: فلان -وكان أكبرنا سنًا- هو رئيس العصابة .. وأنا النائب .. فوافق الجميع مباشرة !!

ثم رن جرس المدرسة مؤذنا بدخول الصف ..

من الغد اجتمع الفريق مرة أخرى .. لكن مع الأسف أكثرهم نسي أننا أصبحنا عصابة .. فأخذت أذكرهم حتى عادوا لاتفاق الأمس ..

ثم قلت لهم: ما رأيكم أن نفعل شيئًا في المدرسة .. فليس من المعقول أن يكون هناك عصابة بلا نشاط؟

فقالوا: ماذا نفعل؟

فقلت: نحسب كم عدد طلاب المدرسة بالضبط .. ثم نحضر أوراقًا صغيرة ونكتب عليها عصابة العنكبوت ونرسم عليها عنكبوتًا صغيرًا حتى يفهم الجميع الرسالة .. حتى من لا يستطيع القراءة مثل طلاب الصف الأول .. ثم نحضر غدًا مبكرين ونضع على كل طاولة طالبٍ هذه الورقة ..

فوافق الجميع .. بما فيهم رئيس العصابة الذي كان لا يعارضني في شيء أبدًا!

وفعلاً حضرنا من الغد ووزعنا الأوراق على جميع طاولات الطلاب ..

ومن يومها والطلاب والمدرسون يتساءلون حول عصابة العنكبوت هذه ..

استمرت اجتماعات عصابة العنكبوت في الفُسَح وتحت شجرة معينة .. ولكن دون أي نشاط يذكر .. اللّٰهُمَّ إلا مرة واحدة صعدنا فيها إلى سطح المدرسة لنستكشف العالم المجهول هناك .. عندها شاهدنا أحد الأساتذة ثم انكشف أمرنا ..

بعد صعودنا لسطح المدرسة والذي كان مجرد محاولة لتحريك الماء الراكد في العصابة تم انكشاف أمرنا ..

استخدم أحد الأساتذة الأسلوب نفسه في الحرب الإعلامية التي استخدمناها في مرحلة التأسيس .. حيث نشر الخبر في المدرسة وأخبر الجميع بأسمائنا واحدًا واحدًا ومن يومها صرنا (مسخرة) للجميع ..

عندها قررنا حل العصابة .. والبقاء على علاقة الزمالة الدراسية ..

ولأن في النفس حاجة ..

ولأن عصابة العنكبوت لم تؤت ثمارها التي لم يكن مخططًا لها في الأصل !! فقد نقلت التجربة إلى الحارة ولكن بصورة مختلفة قليلاً ..

اجتمعت بعد ذلك بأشهر ببعض الشباب في الحارة وكنا أربعة .. كلنا في المرحلة الابتدائية ..

من حسن الحظ أنهم كلهم لم يكونوا معنا في التجربة السابقة بل ولم يكونوا حتى في نفس المدرسة مما فسح المجال أمامي لتلافي الأخطاء السابقة!!

اجتمعت بهم ذات عصر وعرضت عليهم فكرة تكوين العصابة فوافقوا مباشرة ..

لكن هذه المرة قلت لهم سأكون أنا الرئيس فوافق الجميع ..

ومن باب التنويع اخترت لهذه العصابة اسم: عصابة الكوخ!!

من أين أتت هذه الأسماء؟

لا أدري ..

هذه العصابة كانت مثل سابقتها لكن مع مزيد من النشاط والمكر .. وشيء من التفكير الذي يجعل الحرب بين أطراف مختلفة ونحن لسنا جزءًا منها فيما يبدو للناس ! .. كنا نحرّش بين من لا نحب .. ثم نستمتع بمشاهدة الأيدي وهي تسحب الشعور أو

تلكم الأنوف .. أو حتى تخربش الملامح .. ثم بعد أيام نغذي تلك الصراعات فتعود من جديد ..

أذكر أن أحد الجيران من الشباب المواظبين على الصلاة والمعروفين بسلامة الصدر اقترح عليّ أن أؤذن في المسجد .. عندها وافقت مباشرة وأذنت لصلاة المغرب .. لكني كنت أقول في ذلك الوقت كيف تؤذن يا يوسف وأنت رئيس عصابة؟ ..

بعد أيام .. مل القوم هذه الفكرة .. فانحلت العصابة سلميًا .. ولكن الجميل هذه المرة أننا لم ننفضح مثل ما انفضحنا في المدرسة ..

حتى أختم أقول:

ولله الحمد .. أن مثل هذه التصرفات الطفولية كانت بريئة ١٠٠٪ ولم نتجاوز الخطوط الحمراء في الأخلاق أو الدين ..

بل أذكر مرة أن زارنا أحد جيراننا طفل في عمرنا.. وكان يدخن في نهار رمضان وهو ابن الحادية عشرة .. فكننا ننظر له باشمئزاز واستغراب ونصحناه بطريق غير مباشر .. لكنه لم يستجب هداه الله ..

.....

٦. مع اللغة الإنجليزية

من المشاريع التي أنهكتني في حياتي إتقانُ اللغة الإنجليزية ..
لأن خلفيتي الدراسية مع الأسف الشديد كانت خالية تمامًا من اللغة الإنجليزية ..
قررت السفر للابتعاث في بداية عام ٢٠٠٦ لأسباب كثيرة منها إتقان هذه اللغة التي هي لغة العلم ..
قبل السفر درست الإنجليزي قرابة ستة أشهر في الرياض فنفعتني .. لكن في حدود الـ ٥ %..
أذكر أنني ذهبت إلى معهد الأفق في حي الملز في الرياض وقلت لهم: أريد أن أتعلم الإنجليزية من الصفر ..
فقالوا لي لا بد من عمل اختبار لتحديد المستوى ..
فقلت لهم: ليس هناك مستوى حتى يتم تحديده .. فأنا لا أعرف أي شيء في اللغة الإنجليزية ..
فقالوا: لا بد من ذلك .. أو تكتب لنا تعهدًا بأن لا تطلب تغيير المستوى الذي سنضعك فيه وهو للمبتدئين الذين لا يعرفون أي شيء في الإنجليزي ..
فقلت لهم: هذا ما أريد .. ثم كتبت التعهد ووقعته في ثوانٍ!!
بعدها وضعوني مع أستاذ أردني أقل ما يقال عنه أنه إنسان رائع .. عرف مستواي وبدأ بي من لا شيء ..
كان عدد الطلاب في الفصل اثنين فقط، أنا وشاب يمني لطيف ظريف ألفته وألفني ..
تعلمت في تلك الدورة كيف أكتب اسمي وأيام الأسبوع وأهم الكلمات الضرورية .. ثم اختبرت فنجحت والحمد لله ..

انتقلت بعدها لمستوى أعلى مع أستاذ سيئ الطباع .. ضيّق النفس .. سريع الغضب .. يريدنا أن نتعلم بالنية .. جاف المشاعر .. كدت أكره اللغة الإنجليزية بسببه ..

أذكر أنه لم يبتسم إلا مرة واحدة .. ولم يتحدث معنا خارج الموضوع إلا مرة واحدة تحدث فيها عن الشيخ عائض القرني وقال إنه يحب موسوعيته .. ثم عاد سريعًا للمنهج بوجه مُكفَهرّ!!

حقيقة .. لم أستطع إكمال تلك الدورة بسبب ذلك المدرس .. فتركتها .. واستأنفت الدراسة بعد شهر مع مدرس آخر ..

هذا المدرس الآخر .. علم وقتها أن أخي الأكبر يعمل وزيرًا .. فقال لي: يا يوسف لا تهتم كثيرًا سأنجحك في هذا المستوى !! وكان يسألني كثيرًا عن أخي الوزير!!

تمنيت وقتها أن أغيّر اسمي .. لأنني رأيت المنفعة تقودني للنجاح وليس الجدارة !!

المهم .. أنهيت ذلك المستوى بنتيجة ناجح ! لكن بغير جدارة .. لأن أخي الوزير!!

قررت بعدها تغيير المعهد لأنفع نفسي أكثر .. وأهرب عن عبدة المصالح .. فانتقلت لمعهد (دايركت إنجلش) .. وأكملت المشوار هناك ..

ولكن ..

في أول يوم لي سألني المدرس: هل هناك قرابة بينك وبين الوزير النملة؟

وقتها ضحك أحد أصدقائي وكان اسمه (بدر) فلم أستطع إخفاء ذلك .. فقلت له: نعم هو أخي ! فأثنى عليه وقال أحب أن أقرأ له وللدكتور غازي القصيبي !!

الجميل هذه المرة أنه لم يحابِني ،، والدليل أنني رسبت في ذلك المستوى لأن لغتي كانت لا تزال ضعيفة جدًا ..

أعدت المستوى فنجحت ثم درست بعده مستويين أو ثلاثة حتى سافرت لأستراليا ..

أذكر مرة أن درّسنا أستاذ سوري قدير جدًا ومثقف جدًا اسمه زياد الجمل وكان له من اسمه نصيب !! لكنه جعل الإنجليزي لنا كالماء البارد ..

حصلت عنده على درجات عالية .. وأذكر أنني كتبت في آخر الورقة في الاختبار النهائي: ربما تفهم النملة من الجمل أحيانًا!!

فصادفني بعدها في أحد ممرات المعهد فلما رآني بدأ يقهقه بصوت تحسه قبل أن تسمعه!!
أذكر من المواقف المحرجة في تلك المرحلة أن شاهدني أحد الشباب في المعهد فقال لي:
أهلاً أبا الجوري .. ما شاء الله بدأت تدرّس هنا إنجليزي؟!! يظنني مدرّسًا !!
في تلك الأيام ذهبت لأستراليا لقضاء شهر واحد فقط .. تعلّمت فيه في معهد بائس اسمه (آسبكت)
كان يدرسنا فيه مدرس اسمه (مِن) .. لا يتكلم إلا قليلاً .. وكثيرًا ما كان يُسرّح شعره الذهبي في قاعة الدرس !!
..
بعدها أعجبت كثيرًا بأستراليا لأنها جميلة جدًا ومنظمة وبعيدة عن عجرفة أمريكا في التعامل مع السعوديين ..
بعد ذلك قررت اختيارها كبلد للدراسة ..
حول ذلك المعهد بقيت ذكريات كثيرة ..
منها أننا كنا كالإخوة .. لأن عدد السعوديين في أستراليا عام ٢٠٠٦ كان قليلاً جدًا ..
كنا قرابة ١٥ طالبًا سعوديًا في المعهد ..
من تلك الذكريات .. أنني مرة تفاجأت بأخت سعودية كبيرة في السن تقترب مني وتسلم علي وتبتسم في وجهي .. ولم تكن وقتها ترتدي النقاب ولا الحجاب .. عندها (انعقد لساني) لأنني ذكوري التربية وأخواتي تزوجن وأنا صغير جدًا فلم أكن أتعامل أبدًا مع الجنس الأنثوي .. وهو نقص في شخصيتي كملته لاحقًا والحمد لله بعد أن رُزقت بالبنات ..
لم أتمالك وقتها إلا أن أبتسم و (أبلع العافية) .. بعدها أصبحت أراها في المعهد أو في بعض مراكز التسوق فأبادلها التحية وأنصرف ..
طلبت مني مساعدتها في بعض أمور الدراسة والقبول .. فأحلتها إلى رئيس نادي الطلاب السعوديين في سيدني .. فأدى الواجب لكن لم تتوفر لها فرصة الابتعاث فعادت للسعودية ..

.. تعلمتُ قليلاً من الإنجليزية في تلك الفترة .. لأني أتيت للسياحة ولرؤية أستراليا لا لدراسة اللغة بالدرجة الأولى ..

أذكر أنني اتصلت على قناة المجد وكنت وقتها أعمل فيها .. وعرضت عليهم تصوير بعض التقارير من أستراليا فوافقوا مباشرة .. فصورت ستة تقارير تلفزيونية مختلفة كلها كانت في سيدني ..

..

في الثاني من فبراير عام ٢٠٠٧م..

بدأت دراسة اللغة الإنجليزية في معهد الإنسيرتش (الموت الأحمر) !!

وصلت إلى سيدني في وقت الصيف ..

حططت رحالي في بيت أحد الأصدقاء الذي كان يقضي إجازته في السعودية ..

بعد يومين استأجرت شقة جديدة بفضل الله تعالى ثم مساعدة بعض الأحبة ..

بعد أيام قليلة بدأت مشوار اللغة الإنجليزية المضني ..

اختبروني فوضعوني في مستوى قريب من المبتدئين .. لأنهم يستغلون الطلبة الأجانب وأحيانًا يُذلونهم إن لم يكونوا حاصلين على التوفل أو الآيلتس !

أول ستة أشهر كانت جهادًا كبيرًا .. لكن الثمانية أشهر التي تلتها كانت أخف ..

حاولت تجاوز مرحلة اللغة عن طريق اختبار الآيلتس ثلاث مرات لكن لم أستطع لأن فيه تحديًا لم أستطع مواجهته .. فقررت إنهاء مستويات المعهد التي لا تقل صعوبة عن الآيلتس لكن ساعدني بعد الله الله تعالى طول وقت الاختبار في المعهد ..

فمثلاً الآيلتس يسمح لك بساعة واحدة فقط للكتابة لكن المعهد أعطاني ثلاث ساعات ونصف .. ولكنها كانت تذهب كالبرق!!

لم أحاول أن أختبر التوفل لأنه ليس متوفرًا في أستراليا مثل الآيلتس الذي تعدّ سيدني أحد مراكز العمل عليه ..

لا أستطيع أن أسرد كل ما حصل معي حال دراسة اللغة في الإنسيرتش ولكن سأذكر أهم ما يتردد في الذهن من مواقف فأقول:

أولاً: حول المدرسين:

المدرسون كانوا مختلفين .. بعضهم لطيف وبعضهم خبيث !! ..

درّسَنا مراهق عمره ستون سنة !! وكان لا يكاد يقف عن الحديث عن النساء والجنس ..

درّسَنا بريطاني عنصري .. يستهتر بالجنس غير الأبيض .. وكثيرًا ما كان يقلد لهجة الهنود حين يتحدثون الإنجليزي ويضحك بخبث .. وقتها كنت أقول في نفسي: ترى لو درس طلابًا من الجنسية الهندية فهل سيبدأ بالاستهتار بالعرب أو السعوديين؟

الغالب على أساتذة معهد الإنسيرتش كان الإخلاص والتفاني في العمل ..

المرأة المعلمة في بعض الأحيان وبسبب ضعفها لم تكن تستطيع أن تخفي كرهها لغير بني جنسها .. أقصد البيض .. كنت أعرف هذا من لغة البدن ومن لغة العيون ومن التهميش لبعض الطلاب أحيانًا وإن لم تنطق ببنت شفة ..

اشتكيت مرة أستاذًا لأنه كان لا يعرف أيّ شيء عن أي شيء!!

ذهبت إلى مدير المعهد وقلت له القصة كاملة ..

وبعدها أصبح ذلك المدرس يلاحقني في ممرات المعهد ويعطيني أوراقًا تفيد في اللغة الإنجليزية الأكاديمية !! ووقتها كنت أقول في نفسي: الذي أريده منك مهارة تدريس وقوة في التخصص وقدرة على ضبط الفصل الدراسي وليس أوراقًا يا محروم التوفيق!

في ذلك المعهد لاحظت أنه كلما كان المدرس غير أسترالي كان أقرب إلى الطلبة لأنه يشترك معهم في الضيافة ! أما الأساتذة الأستراليون فكانوا جافّي التعامل في غير المنهج ..

العلاقة بينك وبينهم في الفصل أو المعهد فقط .. هذا كان الغالب عليهم ..

درّسَنا ألماني خفيف لطيف .. طلب مني مرة أن أعلمه بعض الكلمات في اللغة العربية فعلمته .. ومرة أعطاني ورقة فقلت له: (شكرًا) باللغة العربية فقال لي: فلافل !! يقصد (عفوًا).

درستنا امرأة سمينة كريهة .. كانت تنهرنا كالأطفال !! كنا نحترمها وتسيء إلينا .. أذكر مرة أنني كنت ذاهبًا إلى المعهد في صباح أحد الأيام فتذكرت أنها ستدرسنا ذلك اليوم .. فضاقت علي الدنيا واغتممت .. ولكني لجأت إلى الله تعالى وأخذت أدعو عليها قرابة نصف ساعة .. وبعد ذلك بيوم غابت عن المعهد، وجاء عوضًا عنها أستاذ خفيف الظل ثم قال لنا: إن مدرستكم فلانة أصيبت بعارض صحي !! ولم أرها منذ ذلك اليوم .. فاللّهُمَّ لك الحمد أولاً وآخرًا ..

..

ثانيًا: حول الطلاب:

باختصار .. أربعة أخماس الطلبة كانوا من الصين ..

يرتاح لهم البعض ولكن آخرين يشمئزون من بعض تصرفاتهم .. مثل الأكل في كل مكان .. و الغش .... و اللهجة غير المفهومة أحيانًا ..

أذكر أنني درست أحد المستويات وكنا ١٢ طالبًا في الفصل .. ١١ طالبًا كانوا من الصين وأنا كنت الثاني عشر!!

..

كانت تزعجني بعض تصرفات الطلاب السعوديين ..

بعضهم كان فخورًا جدا جدا فقط لكونه سعوديًا ويتكبر على غيره ..

أذكر أن طالبة إندونيسية درست معي .. وكانت تتحدث مع الطلاب السعوديين كثيرًا بحكم الشراكة في الدين .. لكني صُدمت مرة حين قال لها طالب سعودي حين أكثرت الحديث: (أقول روحي صلحي لنا شاهي أصرف لك .. محنب ناقصين شغالات) .. وقتها تساءلت لماذا هذا الكِبر من بعض الشباب السعوديين .. هل هو بسبب جوائز نوبل التي حصدها .. أم بسبب اللغات الخمس أو العشر التي يتكلمها .. أم بسبب التفوق غير المسبوق الذي حققه ..

مع الأسف الشديد،إن الضعف اللغوي لا يستغرب على بعض الطلبة السعوديين أقصد الطلاب .. أما الطالبات فحالهن أحسن بكثير ..

أذكر أن بعض الطلاب السعوديين لم يكن يستطيع أن يتحدث أو يكتب باللغة العربية فضلاً عن الإنجليزية!!

حصلت في ذلك الوقت مواقف محرجة سببها اختلاف الثقافات بين الطلاب ..

أذكر أن طالبًا من تايلاند وتحديدًا من بانكوك ربطتني به علاقة صداقة جيدة .. ولكنه ذات يوم ضربني بقوة على مؤخرتي أمام بعض الطلاب السعوديين !! بعدها عرفت أنها مزحة من (يمون) في ثقافته !! لا عادها الله من مزحة ولا من ثقافة ..

إلى غيرها من الذكريات ..

وهنا أهمس في أذن كل من أراد أن يبدأ في دراسة اللغة فأقول له:

ستحتاج وقتًا طويلاً حتى تكون قويًا في الإنجليزي .. وهذا ما أتعبني .. فقد كنت ولا زلت أنشد الكمال في ذلك ..

تعبت في دراسة اللغة لأنها أخذت مني وقتًا طويلاً .. ستة أشهر في السعودية .. وأربعة عشر شهرًا في أستراليا ..

رسبت مرة في السعودية .. ومرتين في أستراليا ..

حاولت مع الآيلتس ثلاث مرات فلم أستطع .. كما قلت ..

حملت همًا كبيرًا وعشت في تحدٍ مع نفسي أثناء دراستي في أستراليا فلم أغب إلا يومًا واحدًا خلال عام كامل اضطررت فيه للذهاب للسفارة السعودية في العاصمة الأسترالية كانبرا والتي تبعد عن سيدني حوالي ثلاث ساعات ..

حتى أختم هذه الذكريات أحب أن أحمد الله تعالى على توفيقه وتأييده ..

فقد وفقني الله سبحانه إلى فكرة مهمة في بداية دراسة اللغة وهي أن مشوار اللغة الإنجليزية مشوار طويل جدًا لكنه يسهل مع الاستمرار والحرص ..

إلى وقت كتابة هذه الذكريات وأنا أتعلم كل يوم كلمات جديدة ..

تعلمت من تلك المرحلة أنك بقدر ما تعطي اللغة وتتعرض لها فستعطيك ..

أما أن تسافر من السعودية إلى السعودية فليس بمُجدٍ .. أقصد أن بعض الطلاب السعوديين يسافر من السعودية إلى أمريكا أو أستراليا ولكنه يمشي مع السعوديين ويدخل مواقع المحادثة بالعربي ويشاهد القنوات العربية في كل أوقاته .. فهذا لن يتعلم اللغة الإنجليزية أبدًا ..

لغتي الإنجليزية الآن ولله الحمد مرضية .. لا أجد أي صعوبة في التحدث أو الاستماع .. أخطب بالعربي والإنجليزي .. لكني أجد بطئًا في القراءة والكتابة .. و لكنني مع ذلك راضٍ عن ذاتي وعما حققته، مع ضرورة الاستمرار في تعلم اللغة الإنجليزية إلى الأبد ..

.....

٧. مع الأطبّاء

أكثر الأطباء السعوديين في المملكة العربية السعودية متكبرون ..
إدارة الموارد البشرية تقرر أن لكل أصحاب صنعة ثقافتهم أو سمة تغلب عليهم ..
فمثلاً:
المعلمون في التعليم العام طيبون ومرتاحون إلى حد كبير ..
أساتذة الجامعات متحفظون ويريدون الظهور أمام الناس بمظهر الإنسان المثقف نظيف الملابس!!
المهندسون يمتلكون التركيز وحسن الإنصات والقدرة على التحليل المنطقي .. وكثير منهم ناجح إداريًا.
الأطباء .. يترفعون على الناس لأنهم يعلمون غيب الطب .. ولأن كل الناس محتاجون لهم!!
لذا .. ولأن الأطباء يعلمون ما لا يعلمه غيرهم -خصوصًا في مجتمع طيب ويستسلم فكريًا لكثير من الأشياء- يترفع الأطباء ويركبون بساط الريح الذي نسجوه لأنفسهم لا ليسبروا واقع الناس ويروا ما يحتاجون بل ليبتعدوا عنهم ثم يرونهم كالحشرات ..
خذ بعض الأمثلة ..
ذهبت مرة إلى استشاري طب أسرة وكنت وقتها أعاني من آلام شديدة في البطن ..
دخلت على الطبيب فاستقبلني بوجه كريه وجبين مقطب وأنف مرتفع .. سألني عما أشتكي فقلت له: بطني وشرحت له مكان الألم .. فكشف عليّ بسرعة ثم بدأ بتعبئة البيانات في ملفي الطبي ولم يتكلم بكلمة واحدة .. فقلت له: (بشر يا دكتور؟)
فقال: (ما فيك حاجة)!

فقلت: والآلام .. هل هي قولون عصبي أم ماذا؟

فقال: نعم قولون عصبي .. أنا الآن أكتب بياناتك لأكمل ملفك .. ثم ألمح لي بأن أخرج فخرجت.

هل هذا طبيب متكبر ؟

ضع في بالك أخي القارئ أنني مكثت فترة طويلة أتصل على العيادات لحجز الموعد ثم أتيت من شرق الرياض إلى التخصصي (الطريق قرابة نصف الساعة) ثم انتظرت قرابة نصف ساعة أخرى ثم كانت هذه النتيجة!

ألا شاه وجهه ووجه أمثاله من ضعاف النفوس المتكبرين.

ذهبت مرة أخرى إلى طبيب أسرة آخر !! في مركز الرعاية الصحية في حي الربوة ..

وعندما سألني الطبيب عما أشتكي قلت له: هذه التقشرات الجلدية (عرفت فيما بعد أنها أكزيما) وأريته كل شيء .. بعدها انصرف للكتابة فقلت له: ما الخبر يا دكتور؟

فقال: أبدًا .. هذه أتتك من الزعبلة!

فقلت: كيف زعبلة؟

فقال: زعبلة.

ثم صرف لي مرهمًا يعالج جميع أنواع الزعبلة ! وأمرني بالانصراف.

..

تدحرجت ابنتي ذات الستة أشهر في الدرج يومًا ما فأخذت تبكي بمرارة .. فذهبنا بها إلى الطبيب وعمل الأشعة والتحاليل ثم قرر أن هناك كسرًا في الترقوة وأمرنا أن نحملها طوال الوقت لأن ترقوة الطفل لا يمكن تجبيرها .. وأكّد علينا الحضور لموعد المراجعة بعد شهر ..

بعد شهر حضرنا .. فتأخر الطبيب كثيرًا كثيرًا ثم نادتنا الممرضة وأدخلتنا غرفة الطبيب .. وحتى يختصر المواعيد أدخل معنا مريضًا آخر .. ثم قال لنا: كيف البنت؟

فقلنا: طيبة الحمد لله .. لكن نريد أن نتأكد منك!!

ثم مرر أصبعه المباركة على مكان الكسر ولم يشاهد الأشعة القديمة ولم يأخذ أشعة جديدة ثم قال: الحمد لله البنت طيبة .. (خلوها تتعرض للشمس ولا تعطونها ببسي وخرابيط) ثم خرجنا منه.

(ببسي وخرابيط) .. هذه حصيلة الملايين التي صرفتها الدولة على هذا الطبيب .. سنوات طويلة في دراسة الطب واختبارات ومعامل و بعد التخرج مناسبات و (عزايم) وتبريكات وألقاب بمناسبة التخرج وربما (ترزز) في الجرائد ثم الحصيلة ضرورة تجنب (الببسي والخرابيط).

(ببسي وخرابيط) !! لا أربح الله بضاعتكم يا أطباء الفراغ الأخلاقي .. يا عديمي المسؤولية,,

هل هناك وظيفة إنسانية أشرف وأنبل من الطب؟ لا بالتأكيد.

هل رسم الأطباء السعوديون صورة مشرقة لهم يحترمهم من خلالها المجتمع والناس في المملكة العربية السعودية؟ لا بالتأكيد.

يا أطباءنا السعوديين .. قوموا كل صباح والبسوا نظيف الثياب والبسوا الروب الأبيض .. وعلقوا بطاقة العمل .. وإذا وصلتم المستشفى أو العيادة فابدأوا في إذلال خلق الله تعالى و(مسخروا) بالشعب السعودي منزوع الحول والقوة إلا من خالقه .. فإن هذا كل ما تحتاجونه .. وإذا سألكم أحد عن وظيفتكم فقولوا: نحن أطباء .. أطباء .. قولوها بالفم المليان فليس هناك من يحاسبكم على ذلك .. وإن كان ثمة من يحاسبكم على ساعات الدوام فإنكم لن تجدوا من يحاسبكم أخلاقيًا. أغلبكم يا أطباء المملكة العربية السعودية فشلت أخلاقه وتردت حاله حتى أصبح يُصدِّر سوء الخلق إلى ممرضاته وموظفيه .. ألا بئس ما أنتم فيه وما أنتم عليه ولا أماتكم الله تعالى حتى تذوقوا الذل كما ذاقه مرضاكم.

..

وللإنصاف .. هناك أطباء سعوديون قليلون هم قدوة في الأخلاق .. أبرزهم هو معالي الدكتور عبد الله الربيعة.. فهو إنسان متواضع .. مبتسم دائمًا رغم ما حققه من نجاحات وشهرة عالمية ..

حضر مرة مناسبة زواج إحدى قريباتي فقابلته وسلمت عليه فعرفني بنفسه قائلاً: أنا عبد الله الربيعة !! دون أي إطارات هلامية !! وكان طوال تلك المناسبة مبتسمًا متواضعًا قليل الكلام ..

مثال آخر وهو الدكتور عبد الرحمن المزروع طبيب الأطفال المعروف .. طبيب متواضع .. صادق في نصحه وتوجيهه .. واسأل عنه كل من زاره.

الدكتور أحمد العمار .. استشاري الأنف والأذن والحنجرة .. إنسان ذو مبدأ وقيم وأخلاق .. وسمعته الطيبة شاهد على ذلك .. وقد زرته أكثر من مرة في عيادته.

وهنا في أستراليا قابلت ورافقت بعض الأطباء السعوديين الناجحين مثل الدكتور عادل الدعجاني وأحمد بن حبتر العسيري فتعلمت منهم كثيرًا من الأخلاق ووجدتهم أبعد ما يكونون عن الكبر.

ختامًا أيها القارئ الكريم .. اسمح لي أن أنقل لك صورة إنسانية يفعلها الأطباء الأستراليون باستمرار ..

حدثني أكثر من أخ هنا في سيدني فقالوا: ذهبنا إلى المستشفى في مراجعات لأطفالنا الرضع .. وعندما أراد الطبيب الكشف على هذا الرضيع وأخذ عينة للتحليل وجد (أكرمكم الله) في الحفاظة بعض الفضلات .. يقول صاحبي:فانحرجت وقلت للطبيب: زوجتي معي وسوف تقوم بتنظيف الطفل. فقال الطبيب: لا .. أنا سأقوم بذلك لأن هذا جزء من وظيفتي !! فنظف الطبيب ذلك الطفل الرضيع وغيّر له الحفاظة!!

يا أطباءنا السعوديين .. لا ننتظر منكم أن تغيروا حفائظ الأطفال .. فاختلاف الثقافات والمجتمعات يحتم عليكم الترفع عن مثل هذه التصرفات .. الذي نريده منكم فقط الابتسامة وإعطاء المريض حقه من الاحترام.

.....

٨. مع الكتب

أقرأ ولله الحمد كثيرًا .. ولكنني أعترف بأن هوسي في شراء وجمع الكتب أكثر من القراءة نفسها وهذا عيب بلا شك

..

إذا أردت أن تعرف مدى الهوس الذي وصلت إليه في شراء الكتب فيكفي أن أقول لك إنني بعد أن قررت السفر للبعثة جمعت مكتبتي في (كراتين) فبلغت ٥٤ (كرتون بيض) !! كلها مرصوصة بالكتب!! يعني قرابة ٣٠٠٠ كتاب!!

كان بعض إخواني يعيرني أنا وأخي وليد بالجنون الشرائي .. كان يتهم أخي وليد بأنه يشتري كل شيء .. اشترى حماما ورباه فترة من الزمن ثم انتقل إلى الدجاج ثم الأرانب .. ثم السمك .. ومرة أحضر كلبًا بوليسيًا للبيت من نوع

German Shepherd Dog

وأذكر أنه كاد يأكلني ! لما رجعت من صلاة الفجر لكن الله سبحانه وتعالى سلّم.

ولكن جنون الشراء لدى يوسف كان ولا يزال حول الكتب .. والكتب فقط!!

بعد مرحلة الابتعاث انتقل الهوس إلى الكتب الإنجليزية!!

كما يحصل لكثير من الأزواج .. يحصل بيني وبين زوجتي خلاف حول الذهاب للسوق .. لأنني أكره أكره أكره الأسواق خصوصًا في بلد غربي .. ولكن وبكيد النساء استطاعت زوجتي التوصل لحيلة ترغمني على الذهاب معها إلى السوق،فبما أنه في غالب الأسواق الكبيرة في أستراليا يكون هناك مكتبة ضخمة وفي داخلها محل لبيع القهوة اقترحت عليّ زوجتي أن أذهب معها إلى السوق ثم أذهب مباشرة إلى المكتبة وأمكث فيها ساعات لأقرأ مع (المخمخة على الكوفي)!

شاهدت في أستراليا وعايشت مواقف كثيرة تشعرك بأن القراءة جزء مهم في حياتهم ..
فمنها أنهم يقرأون في جميع وسائل المواصلات ..
ومنها أن راحتهم في القراءة بدليل أن أحدهم يخرج للاستراحة من العمل لمدة نصف ساعة مثلاً فيقضيها كلها في القراءة ..
ومنها أنهم يقرأون لأطفالهم القصص باستمرار .. حتى على الجنين الذي لم يخرج من بطن أمه!
ومنها أن مكتبة الحي أمر ضروري مثله مثل المسجد في ثقافتنا..
ولكن كثيرًا منهم يقرأون الروايات رغم أنها تفيد في قتل الوقت أكثر من بناء المعرفة ..
أول ما بدأت دراسة اللغة الإنجليزية سألت أمينة المكتبة في المعهد عن أقرب مكتبة لبيع الكتب فدلتني عليها فأصبحت أذهب لها كل أسبوعين تقريبًا لأشتري أي كتاب ..
رغم أن مكتبة المعهد وفرت لنا كل ما نريد وبالمجان .. ولكنه هوس الكتب!
زهراتي الصغيرات بدأن يرشدنني إلى المكتبات في حال السفر حين يرين لوحة لمحل بيع الكتب .. لعلمهن بأن زيارتي لتلك المحلات تدخل السرور على قلبي وتعدّل المزاج!
..
خرجت بنتائج كثيرة بعد هذه التجربة .. أقصد تجربة القراءة والعيش مع الكتب ..
منها أن غالب ما يعرض في السوق من الكتب هو من الكتب التجارية التي لا تنفع قارئها إلا قليلاً..
ومنها أن الكتاب المفيد المتين عزيز الوجود..
ومنها أن قراءة الكتاب مرتين أفضل من قراءة كتابين..
ومنها أن الهوس في شراء الكتب مرض لا علاج له..
ومنها أن التفكير في وقف المكتبة الخاصة بعد عمر طويل إن شاء الله أمر لا بد منه حتى يكون من العلم النافع بعد الرحيل..

ومنها أن عدم حب القراءة بلاء .. وعدم المحاولة على التدرب على إخضاع النفس على القراءة جريمة كبيرة في حق النفس وفي حق الذرية..

ومنها أنني وجدت أن من يؤلف كتابًا كل ستة أشهر أو قريبًا من ذلك لا يسلم من التكرار .. وقيمة كتبه العلمية تكون ضعيفة..

ومنها أن فكرة بعض المؤلفين في عدم تنقيح الكتاب وزيادة معلوماته في الطبعة الثانية أو الثالثة فكرة خاطئة لأن السعي للكمال مطلب شريف..

ومنها أن الكتب الإلكترونية لا تغني عن الكتاب الحقيقي لأن له طعمًا خاصًا حين يكون بين يديك..

ومنها أن كتب الشرقيين ومنهم العرب أعمق من كتب الغربيين لأن الكتّاب الغربيين في الغالب محصورو الأفق المعرفي حين يكتبون بخلاف الشرقي خصوصًا حين يكون عالما أو مفكرًا موسوعيًا وهم كثير والحمد لله..

ومنها أن قراءة مواقع النت والصحف وغيرها لا تبني مثل ما يبني الكتاب..

ومنها أن القراءة تبدأ كعبءٍ ثم تنتقل لتكون مصدرَ علم ضروريًّا، ثم ينتهي بك الأمر إلى أن تكون القراءة هوايةً ومتعةً وجزءًا من البرنامج اليومي..

ومنها أن الكاتب الجيد ليس بالضرورة وزيرًا جيدًا ولا حتى مديرًا متميزًا .. فمن فتح الله عليه بابي القراءة والكتابة فليلزم مكتبته ولا يتطلع لمعالي الدنيا لأنه فوقها..

ومنها أن الكتاب لا بد أن يكون في حقيبة سفرك..

ومنها أن القراءة في المطار وفي الطيارة أثناء الرحلة أسرع وسيلة لإنهاء الكتاب خصوصًا الكتاب الثقيل الذي لا بد من إنهائه..

ومنها أن القراءة في المناسبات تفيد في تثبيت المعلومة .. مثل أن تقرأ في الاقتصاد أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية..

ومنها أن فكرة تأليف كتاب ثم تركه لمدة سنة أو سنتين ثم إعادة قراءته مرة أخرى قبل نشره فكرة جيدة...

ومنها أن التكلف في جمع المراجع الضخمة كتاريخ الطبري ورصّها في المكتبة لا يفيد كثيرًا في عصر النت..

ومنها أن كتابة اسمك على الكتاب أبسط حقوق نفسك عليك..

ومنها أن وضع برنامج يومي للقراءة كأن تقرأ ساعتين كل يوم أو مئة صفحة هو نظرة مثالية قاصرة ستقف يومًا من الأيام .. وهي لا تفيد بقدر ما يفيدك حب القراءة..

ومنها أن إعارة الكتب شر لا بد منه..

ومنها أنك إذا أردت أن تتقن فنًا فيجب أن تقرأ فيه وتدرّسه ثم تؤلف فيه .. هذه الأمور الثلاثة تجمع لك أطراف أي علم تريده..

ومنها أن الكتب الأكثر مبيعًا هي في الغالب الأكثر سخافة وضحكا على (الدقون) !! لأن عامة الناس دائمًا يبحثون عن مادة رخيصة قائمة على تلوين الصفحات وصورة المؤلف مع ابتسامة عريضة ولغة هزيلة وفكر تجاري!

ومنها أن تركيز القراءة في التخصص ثم تذوق العلوم الأخرى واجب أدبي لا بد أن تُلزم به النفس!

...

لي أصدقاء يقرأون كثيرًا..

أحب مجالستهم والاستماع إليهم ومشاورتهم .. وسماع أخبارهم..

ولي أصدقاء بعضهم قرأ آخر كتاب قبل عشر سنوات!!

ولكن كلهم أصدقاء .. وفي كل خير..

ختامًا أقول..

الحمد لله الذي رسم لنا منهج (اقرأ) لنقرأ.

.....

٩. مع التديّن النجدي

صليت العصر قبل أيام في أحد مساجد سيدني .. وقبل أن أخرج قابلني شاب متحمس ثم قال لي: لماذا لا تلبس لبس السنة؟! (وكنت وقتها ألبس الكاجول .. بنطال وقميص) فقلت له: ماذا تقصد؟ فقال: البس ثوبا وطاقية .. ولا تلبس هذه الملابس !! فبدأت أتحدث معه حول هذا الموضوع وأحاول أن أبين له أن الحرص على التميز في اللباس في أي بلد أغلبه غير مسلمين أمر غير محمود في الشرع فضلاً عن أن يكون من السنة .. وأثناء الحديث أبدلت نظارتي الطبية بالنظارة الشمسية .. ثم نظر إلي باستغراب وقال: ونظارة شمسية أيضًا!!

..

..لعلي أخي القارئ أعبُرُ بك المحيطات متوجهًا من سيدني إلى وسط المملكة العربية السعودية .. إلى نجد إلى حيث زمهرير الشتاء الذي (يحرولك) عن الحركة .. وإلى حيث سموم الصيف المذيب للأدمغة أحيانًا .. وإلى رجال متدينين أحبهم كثيرًا ولكنهم لا يحبون من خالفهم في مسائل يسميها علماء الإسلام مسائل الخلاف!!

..

الناس طبائع .. وقد ذكر ابن خلدون في المقدمة أن ميول البشر الخُلُقية والنفسية والاجتماعية ربما تغير من تدينهم .. لذا نجد أن تدين نجد تدين جاف كصحرائها ! بل وجاف جدًا أحيانًا .. وهذا التدين الجاف ربما امتد ليصل إلى سيدني الخضراء الساحرة بأنهارها وطبيعتها كما في القصة السابقة إذا تلقّف الناس رأيًا واحدًا ورددوه لسنوات متثاقلين أو خائفين من تنبي رأي يخالفه !! أقصد بالجاف عدم اللين !! التدين الذي بُني

على التصنيف الذي يعقبه بطبيعة الحال الإنكار .. الإنكار على كل من يخالف ما اعتاده الشخص أو نشأ عليه .. وإن لم ينكر بلسانه فتكفيك منه لحظات البصر التي تقصفك من مكان بعيد!!

..

إذا كنت يا أخي الفاضل تتذكر كلمة بوش التي أنكرها العقلاء حينما قال: (إذا لم تكن معي فأنت ضدي) .. ففي أوساط المتدينين من يمارس هذه السياسة نفسها !! بمعنى أنك إما أن تعفي لحيتك (ولا تضبّطها) وتقصّر ثوبك وتستخدم عبارات معينة أثناء حديثك .. فتكون معي .. وإلا فهناك حواجز بيننا ..

مدرسة ابن باز وابن عثيمين – رحمهما الله تعالى- أسست منهجًا واضحًا للتدين وهو منهج يقوم على مستوى عالٍ من الورع والتقوى.. وهذا المنهج بلا شك أثّر على الاختيارات الفقهية لِذَينِك العلمين .. ولكنهما - رحمهما الله تعالى- كانا يقبلان الخلاف الفقهي مثلهما مثل سائر علماء وسلف الأمة – رحم الله الجميع- .. ولكن المشكلة فيمن تبنّى منهجهما تدينًا دون فقه .. فقط تدين متشدد جدًا دون قبول للرأي الآخر !!

..

حضرت محاضرة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض ... وكان المحاضر وقتها فضيلة الشيخ العلامة عبد الله بن منيع .. وكان موضوع المحاضرة حول التأمين التجاري الذي أجازه قلة من علماء المملكة العربية السعودية..

وبعد أن انتهت المحاضرة قام من قام وتكلم وأنكر .. لأن الشيخ ابن منيع أجازه تقريبًا وإن لم يصرح بذلك في المحاضرة..

(لا أحب القرضاوي .. ولا أحب من يحب القرضاوي) هذه الكلمة سمعتها من أكاديمي متدين تبنى رأى المحرّمين في تلك المحاضرة .. قالها حينما قال له بعض الحضور في نقاش جانبي: إن الدكتور القرضاوي له رأي يختلف عما ذكرت..

قالها غاضبًا ثم خرج من القاعة .. ومع الأسف الشديد أن هذه الكلمة قوبلت بابتسامة الرضا من كثير ممن حضروا ذلك اللقاء !! ولعل من أسباب ذلك أن ذلك الأكاديمي المتدين كان يحاكم فقه القرضاوي بما لديه من فقه نجدي محدود جاف .. جاهلاً أو متجاهلاً ما يحظى به الدكتور العالم القرضاوي من سمعة ضاربة في شرق الأرض وغربها وقبول غير مشروط بين مسلمي الغرب خصوصًا!

..

اسمح لي أخي القارئ أن أناقش هذه الموضوع بهذه الصراحة لأن التدين غير الدين .. التدين أعمال العباد ومحاولة تحقيق العبودية لله تعالى .. ولكنه عمل البشر الذي يخالطه ما يخالطه من التجاوزات والاجتهادات الخاطئة أحيانًا..

..

لما بدأت قناة المجد بثها في غرة رمضان عام ١٤٢٣هـ اشتريت الرسيفر وبدأت أشاهدها عندي في البيت .. عندها واجهت استهجانًا من بعض الإخوة الأصدقاء المتدينين .. حتى إن أحدهم قال لي: إياك أن تخبر بذلك أحدًا .. اجعل الأمر سرًا .. لأنه ليس من مصلحتك أن يعرف الناس أن عندك قناة المجد!!

..

ياليت إخوتي وأخواتي يعودون لهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم ليقرأوا اليسر والتيسير في حياته عليه الصلاة والسلام .. يا ليتهم يفقهون أن المتشدد دائمًا أقوى حجة من غيره .. لكن أين الرأي الحق؟ لأن ابن عبد البر - رحمه الله - ذكر في جامع بيان العلم وفضله أن سفيان الثوري رحمه الله قال: "إنما العلم أن تسمع بالرخصة عن ثقة، فأما التشدد فيحسنه كل أحد" هنا المحك !! وهنا التحدي!!

هذا التشديد على النفس وعلى الأهل والأصدقاء عظّم الصغير وصغّر العظيم .. أذكر أنه زارنا دعاة سعوديون أفاضل في أستراليا .. فكان مما دار من الحديث بيني وبينهم موضوع الأخذ من اللحية .. وهذه قصيدة تسمعها كل يوم في نجد !! فقلت لهم: أرجو أن لا نضيع الوقت في نقاش مثل هذه القضايا لأن الخلاف فيها معروف ولم يقف سلف الأمة

عندها كما وقفوا عند ما هو أهم مثل أعمال القلوب .. ثم صادف أن زرنا مركزًا للدعوة في سيدني فقال لنا أحد الدعاة أنه يسلم عندنا كل أسبوع من ثلاثة إلى خمسة أشخاص .. فالتفت إلي صاحب موضوع اللحية وقال: رأيت يا يوسف .. هـؤلاء يُـدخلون النـاس في دين الله كل يوم ونحن نتخاصم حول تقصير اللحية .. بعدها والحمد لله لم يذكر اللحية في حديثه أبدًا لأنه أدرك أن هناك ما هو أهم .. مع الاعتراف بمشروعية اللحيـة وأنهـا من شعائر الإسلام لكنها أعطيت أكثر من حقها عند كثير من الناس..

...

نقطة أخرى حول نوع التدين .. وهو أن بعض المتدينين قد يكون لديـه خلـل دون أن يعلم ..

فغالب التدين الذي نشأتُ عليه ونشأ عليه أترابي هو تدين ترك ولـيس تـدين فعـل أو مبادرة .. نترك سماع الأغاني .. نترك التدخين .. إلخ، كل هذا جميل ولكنـه شـطر واحـد من التقوى التي هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيـه .. ومع الأسف لم نكن نهتم بالقسم الضروري الآخـر مـن التـدين وهـو تـدين الفعـل والمبادرة .. كبر الوالدين بصدق .. والأعمال الصـالحة الخفيـة الـتي لا يعلـم بهـا إلا الله تعالى .. وكفالة اليتيم .. و تحقيق الأخـوة الإسـلامية الـتي تجمـع المسـلمين .. وكـذلك العبادات التي يغفل عنها الناس.. والعبادة في زمن الفتن لأنها كهجرة إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم كما جاء في مسلم وغيره .. وصلة الرحم .. والعيش مع القـرآن الكـريم أوقاتًا كثيرة حتى ينطبق على الشخص وصف صاحب القرآن الذي يقال له يوم القيامـة: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخـر آيـة تقرأهـا !! يـاله مـن فضل عظيم..

...

في زمن الابتعاث عايشت إخوة من جميع مناطق المملكـة .. بـل مـن جميـع دول العـالم الإسلامي .. فما وجدت والله ألذ من الأخوة الإسلامية .. ولو صنفت الناس بما لديهم من لحى طويلة أو ملابس فوق الكعبين لما بقي أحد أرتضيه كصديق أو صاحب!!

وبالمناسبة .. ومن باب الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم .. لا أكتم القارئ سرًا إن قلت رغم أنني تربيت فوق رمضاء نجد وتحت سمومها اللذين يذكرانك جهنم !! إلا أنني تعرفت على قوم طيبين .. أعجبني تدينهم الرفيق الهادئ اللين .. الصادق بإذن الله .. أحبتي أهل الحجاز الذين تعلمت منهم الأخلاق وحسن المنطق والابتسامة .. لا أنسى تلك اللحظات التي أدخل فيها المسجد يوم الجمعة فأجد إخوة من المدينة ومكة وجدة وغيرها من مدن الحجاز قد أتوا مبكرين جدًا واصطفوا في الصف الأول يقرأون القرآن بخشوع وقد ارتدوا (العمّة) الحجازية الصفراء ولباسًا يبرق بياضًا تاركين همّ الدراسة بل هم الدنيا كلها خلفهم .. متوجهين إلى خالقهم سبحانه في منظر لا يستطيع رسمه أفضل رسامي الدنيا .. ومن يستطيع رسم الروحانيات؟! عندها كنت أقول في نفسي .. أينكم يا رجال نجد .. يا مصنِّفة الخلق .. أينكم .. لا أراكم هنا في الصف الأول!!

..

..

نصيحتي للأجيال القادمة أن يأخذوا التدين بهدوء ورفق وعدم تشنج .. وأن يهتموا بالقيم .. والأخلاق .. لأنهما أهم بكثير من المظاهر..

اللّهُمَّ اهدنا فيمن هديت...

.....

١٠. مع الحريق

النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن النار عدو لنا..

وحذرنا عليه الصلاة والسلام منها في أكثر من حديث .. مثل (إن هذه النار إنما هي عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم) رواه البخاري ومسلم

..

لما كنت في السابعة أو الثامنة من العمر تردّدَ في حيّنا حي الملز وبالتحديد في شارع صيتة خبر احتراق مستودعات بيت الرياضة (الفالح) .. فهب الجميع لمكان الحريق على اختلاف في مقاصدهم!!

لسبب أو لآخر بدأ الجميع بلا استثناء يأخذون ما يستطيعون مما سَلِمَ من الحريق .. ويتناهبونه تناهبًا .. وحينما كان البعض ينكر كان البعض الآخر يرد ويقول: الفالح نفسه قال لنا خذوا ما تريدون دون مقابل .. وحينها لم يكذِّب الناس الخبر .. و لا زالت الصورة حاضرة في ذهني إلى الآن .. أكوام من الملابس الرياضية والكور ومضارب التنس والكسارات و وو والناس فوقها لا أقول يلتقطون بل (يحشون) منها بقدر ما يستطيعون..

بعض المثقفين آنذاك فسّر الإذن من الفالح بأنه إذن حقيقي وصريح حتى يستفيد من التأمين .. والله أعلم بالحال..

مما يجدر الوقوف عنده هو أن الحريق الذي أتي على مستودعات الفالح كان عصيبًا ومؤلما وقاسيًا لهم بشكل لا يتصور .. كنت وقتها أفكر في الفالح نفسه كيف سيرتب تجارته ويعيد الأمور إلى نصابها!!

من الذكريات ذات الصلة أيضًا .. أن أبناء جيراننا بعد تلك الحادثة مكثوا قرابة السنتين لم يشتروا من محلات الرياضة شيئًا !! وكان طقم الفريق في الحارة واحدًا .. وكانوا يلبسون التكميلة مع الكسارات مع الشراب مع الكنادر مع الكابات !! ومن زود (الفسقة) كان أبناء الحارة يُحضرون كرة الطائرة لملعب القدم ثم نلعب بكرة القدم فقط!

..

موقف آخر مع الحريق .. وهو أنني لما كنت في المرحلة المتوسطة كنت مشاركًا فاعلاً في أنشطة المعهد العلمي .. وبالمناسبة أقول .. درست المرحلة المتوسطة والثانوية في المعهد العلمي في الملز والحمد لله على كل حال .. ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما درست في المعاهد العلمية .. لأنها وبرغم كونها محافظة وتقوّي الطلاب شرعيًا ولغويًا إلا أنها عزلتنا عن علوم العصر وضروراته، كالحاسب الآلي واللغة الإنجليزية وعلم الفيزياء والكيمياء وغيرها .. ولا أبيح سرًا إن قلت إنني لا أزال إلى الآن أعالج النقص المعرفي لديّ بسبب دراستي في المعاهد العلمية..

على كل حال نعود للموضوع..

أذكر أنني رُشِّحت للمشاركة في رحلة طلابية في المعهد العلمي فأعطاني الأستاذ ورقة موافقة ولي الأمر لكي يوقع عليها والدي رحمه الله .. لما رجعت للبيت أردت أن أعطيها والدي فرآها أخي وليد والذي كان يدرس معي في نفس المعهد وكان مرشحًا أيضًا للمشاركة في نفس الرحلة .. لما رأى الورقة معي قال لي: دعني أرها .. فأعطيته إياها ثم تناول كبريتًا أو ولاعة (نسيت!) كانت قريبة منه ثم أحرقها .. فقلت له: لم فعلت هذا؟ فقال: (ما تحتاج موافقة) فقلت: ماذا تقصد؟ فقال: (أبوي ما درى عنك أصلاً رحت وإلا جيت) !! ولا أكتمكم سرًا أنني تملكني الغضب وقتها وذقت القهر لكنني لم أستطع أن أفعل شيئًا لأنه أكبر مني ! .. لكن قلت في نفسي: سترى إن شاء الله.

فلما كان من الغد حضرت أنا وأخي وليد ومجموعة من الطلاب إلى مقر النشاط الطلابي وكان عددنا بالعشرات .. وحضر الأستاذ الذي سيجمع الأوراق، فلما سألني عن ورقة

الموافقة قلت له أمام جميع الطلاب: يا أستاذ فلان .. لـم أحضر ورقـة الموافقـة لأني أخي وليد أحرقها أمس !! فقال المدرس متعجبًا: أحرقها !! لماذا؟ فقلـت له أمـام الطـلاب: لا أدري يا أستاذ .. هل يمكن أن تسأله؟ هاهو أمامك!

فسأل الأستاذ أخي وليد فلم يتمالك إلا الصمت الذي لفّه و الإحراج الذي اعتراه من كل مكان .. المشكلة أنه كان أحد الطلاب الذين يعدّون من القدوات في تلك السنة!!

وحينما لم يجد أخي وليد جوابًا .. انهال عليه الأستاذ بالتوبيخ المخلوط بالنصح والتوجيه والتأنيب وووإلخ..

وقتها كنت أتبسّم في وجه أخي وليد وأقول في نفسي: (قلعتك) !!

..

احتراق منزلي كان المصيبة الأكبر في ذكريات الحريق!!

والحمد لله على كل حال ..

في عصر أحد الأيام .. كنت نائمًا في البيت .. وعندها استيقظت على صياح زوجتي الذي لم أسمع مثله في حياتي..

يوسف .. نار..

يوسف .. حريق..

عندها قمت فزعًا .. فاتجهت نحو الصالة .. فوجـدت الحريـق قـد بـدأ في إحـدى الزوايـا بسبب التوصيلة الكهربائية .. ولهبه يزداد بقوة رهيبة .. كنت أحـس بحـرارة النـار مـن بعيد..

والمرعب أيضًا أن ابنتي الصغيرة لينة ذات العام والنصف كانت تقف على مسافة أقل من مترين من الحريق وتشاهد النار بصمت غريب .. وقتها هجمتْ عليها زوجـتي وحملتهـا بعيدًا عن النار مع ابنتي الأخرى جوري ذات الأربعة أعوام .. التي كانت وقتها تصر على ارتداء حذائها قبل الخروج من المنزل!!

وقفت زوجتي عند درج المنزل المؤدي إلى الخـارج وبـدأت تصـيح وتنـاديني .. ولكنـني كنت أحاول إخماد الحريق..

وحينما كنت أحاول إخماد الحريق انتشر الدخان في كل أرجاء المنزل في أقل من دقيقة .. وبدأت أحسه في حلقي .. وزاد اللهب .. واقتربت النار منّي .. عندها خفت على نفسي- واستجبت لنداء زوجتي ففررنا من البيت .. إلى بيت جيراننا .. تاركين النار تفعل ما تريد!!

حقيقة .. كان مشهدنا لا يسرُّ الصديق..

زوجتي خرجت تركض دون حجاب لكنها دخلت في بيت الجيران بسرعة والحمد لله..

وجدت نفسي واقفًا في منتصف الطريق بملابس النوم وعليّ بعض آثار الحريق .. ووقتها كنت أنظر إلى بيتي يحترق أمامي .. والدخان الأسود يخرج من النوافذ..

خرجت أم الجيران تصيح أمامي وتسألني عن زوجتي وبنياتي .. ولم تعلم أنهم في وسط بيتها!!

اجتمع أهل الحي .. واتصلوا بالدفاع المدني الذي تاه في طريقه بسبب عدم توفر عناوين واضحة للبيوت في الرياض..

أحد الجيران أحضر لي ثوبًا وشماغًا .. وبالكاد لبست الثوب لأنه كان ضيقًا جدًّا!!

استمر رجال الدفاع المدني في إطفاء الحريق .. وكنت وقتها أرى أن الفوضى وسوء التنظيم سيدا الموقف لأن كل واحد منهم كان يصيح ويوجه ويصرخ وينهر .. الضابط والجندي والرقيب و وو .. منظر يؤسف له حقيقة .. كأنهم لم يتدربوا لحظة واحدة..

استمرت عملية الإطفاء قرابة الساعة .. وعندها اجتمع (ملاقيف) الحي وتعرفت على جيران لأول مرة أراهم!!

وبعد أن خمدت النار .. طلب مني ضابط الدفاع المدني أن أوقع على أوراق .. فوقعت عليها ثم انصرفوا جميعًا .. بعد أن طلب مني مراجعة الدفاع المدني من الغد لاستكمال الإجراءات!!

إجراءات؟ .. نعم إجراءات .. راجعنا (بكرا) لو سمحت!!

دخلت البيت بعدها .. و والله لكأني في حلم .. أو فلم سينمائي..

كل شيء في البيت كان أسودَ شديد السواد .. الجدران .. السقف .. الألعاب .. ولا زلت أحتفظ بالصور حتى الآن .. حتى أواني المطبخ التي كانت داخل الخزانات اصطبغت كلها بالسواد..

يا الله .. شعور غريب انتابني..

وقفت وسط البيت أقلب النظر..

فهذا جهاز لاب توب جديد اشتريته قبل ثلاثة أو أربعة أيام .. أصبح قطعة بلاستيك صغيرة!!

(وكان هنا) سجادة أرضية جميلة..

وهذه ألعاب بنياتي .. أصبحت لا أميّز هل هي عروسة أم قطعة قماش أم حجر أم .. أم .. !!

وهذا (دولاب الصالة) لم يبق منه إلا رسمه!!

كل شيء احترق..

توجهت بعدها لغرفة النوم .. ثم مباشرة إلى ثوبي المعلق الذي كان لونه أزرق !! تناولت محفظتي فإذا هي سليمة والحمد لله .. كل بطاقاتي وأوراقي التي كانت بها لم تتغيّر .. لأن لهب الحريق لم يصل لغرفة النوم .. وإنما وصل الدخان الأسود..

دخلت غرفة زهراتي الصغيرات .. فوجدت الحال كسابقه .. سواد في سواد!!

إيييه يا دنيا..

اللّهُمَّ اجعلها كفارة .. والحمد لله على كل حال..

بحثت عن ثوب أرتديه أوسع من الذي عليّ لأنه كاد يخنقني ويكتم أنفاسي!!

وجدت ثوبًا مناسبًا .. لكنني لم أستطع أن ألبسه لأنه امتلأ بالسواد .. وجدت ثوبًا آخر لا بأس به فنفضته ثم لبسته .. ثم تنظفت و خرجت لأصلي المغرب في المسجد ثم توجهت إلى زوجتي وبنياتي عند الجيران فوجدت زوجتي بوجه أصفر مرعوب .. لا زالت تتخيل النار أمامها..

ذهبت بعدها للبحث عن عمالة لتنظيف المنزل .. فوجدت عمالة مناسبة .. فطلبت منهم أن يأتوا إليّ من الغد في الصباح الباكر..

مكثنا تقريبًا يومين كاملين ننظّف المنزل .. أنا وثلاثة عمال وبعض أقاربي..

ثم أربعة أيام لترميم البيت ودهن الجدران وإصلاح ما أفسده الحريق..

الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله .. وقدر الله وما شاء فعل..

أما الآثار المترتبة على هذا الحريق فكثيرة جدًا..

منها أنني بدأت أُحسُّ بالرعب كلما رأيت حريقًا حتى في الأفلام .. وأتذكر مباشرة تلك الواقعة المؤلمة..

منها أن زوجتي أصيبت بمرض الثعلبة بسبب (الروعة) والذي كاد يقضي على شعر رأسها لولا لطف الله تعالى..

منها أنني عرفت أني لي أصدقاء هم أغلى من الدنيا وما فيها .. فأحدهم أهداني (لاب توب) جديدًا .. وآخر وضع في يدي بطاقة الفيزا وأقسم عليّ أن أسحب منها كل ما أريد .. وثالث وقف معي حتى انتهيت من ترميم البيت .. ورابع كان يأتي ويزورني ويتصل بي كل يوم مرات عديدة..

ومنها أن إخواني الأشقاء لم يبخلوا علي بشيء والحمد لله..

..

أخي القارئ .. أعتذر منك أن كنت أدخلتك في لحظة حزن أو قضية شخصية مؤلمة..

..

اللّهُمَّ أعنا على شكر نعمك ..واجعل ما أصابنا كفارة لذنوبنا الكثيرة العظيمة.. آمين يارب العالمين..

.....

١١. مع قيادة السيارة

لما كنت أدرس الماجستير في جامعة سيدني للتكنولوجيا .. وبعد الانتهاء من إحدى المحاضرات المسائية خرجت أمشي مع الدكتورة متجهين نحو محطة القطار .. وأثناء السير سألتها عن دراستها السابقة فأخبرتني أنها أنهت الماجستير منذ زمن طويل والدكتوراه الأولى في الإدارة وهي الآن تعمل على الدكتوراه الثانية في تخصص التربية وتحديدًا في موضوع التعلم الذاتي Self-Learning عندها زاد الفضول لديّ لاهتمامي بهذا الموضوع .. وبدأت أسألها عن سبب اهتمامها بهذا الموضوع وهل لديها بعض الحالات التي ستجري البحث عليها كـ Case Study فأخبرتني عن أشياء كثيرة منها أنها عثرت على شاب أفريقي صغير السن يعيش في قرية نائية في أفريقيا ولم يلتحق بالمدارس النظامية إلا لأشهر قليلة .. ولكنه استطاع بنفسه أن يجمع أجزاء حطام (هيلكوبتر) وعكف على ذلك فترة طويلة حتى جعلها تعمل وتطير إلى مستوى مرتفع قليلاً..

لقد كان الحديث ممتعاً .. ولكن وصلنا محطة القطار وذهب كل واحد في طريقه ..

..

بكل أسف .. نسيت أن أقول لها أن تجري عليّ دراسة لتختبر قدرتي على التعلم الذاتي لأنني ولله الحمد تعلمت قيادة السيارة دون أي تدريب أو تعليم أو أي مساعدة من أحد .. ولكن كان ذلك بطرق غير مشروعة !!

..

لا أحصي عدد المرات التي كنت أختلس فيها سيارة والدي رحمه الله أو سيارات إخواني والتي كانت متوافرة والحمد لله .. خصوصًا في (عز القايلة) !!

اسمحوا لي أيها القارئ وأيتها القارئة أن أطلعكم على بعض المواقف .. ولا تسألوني عن الدافع والباعث وراء ذلك فقد يكون الشيطان وقد يكون عبث الطفولة .. وشخصيًا أميل إلى أنه دافع شيطاني لأن الشياطين لا تقيل .. أي لا تنام القيلولة !! (ولا يهون) المحفز الذاتي !!

..

لما كنت في المرحلة الابتدائية كنا نقيم أحيانًا في مزرعة نسيبنا عبد الله اللحيدان رحمه الله .. في محافظة البدائع في القصيم .. وذات يوم اتفقت أنا وأخي وليد على سرقة سيارة المزرعة (هايلوكس قديمة جدًا) ووقع الاختيار على أن تكون الجريمة يوم الجمعة حين يذهب نسيبنا لصلاة الجمعة في وسط البلد .. وفعلاً .. لما اقترب وقت الصلاة خرجنا من البيت حتى لا يطلب منا مرافقته .. وجلسنا على أكوام من قوالب التبن (في وجه العدو) في طرف المزرعة وبقينا فترة نرقب رحيله .. وفعلاً خرج بعد دقائق .. وغادر المزرعة .. عندها ضمنّا ساعة على الأقل دون رقيب أو حسيب .. أما عُمّال المزرعة فكان بيننا وبينهم (عيش وملح) !!

انطلقنا مباشرة للـ (هايلوكس) لنبدأ الجولة السياحية في ربوع المزرعة .. وبطبيعة الحال لم نتفاجأ بعدم وجود المفتاح لأن كل ما نحتاج له هو (مشبك / بنسة شعر) التي تضعها البنات الصغار على رؤوسهن .. والحمد لله كان في السيارة (مشبك / بنسة) متوفرة !! ومباشرة حركنا السيارة وبدأنا نسعى في المزرعة فسادًا .. لكن أمرًا ما عكر الجو وأفسد المرح الذي كنا غارقين فيه .. وهو أننا لما أمنّا أكثر خرجنا إلى المزارع القريبة .. وفجأة وقعنا في أرض رملية (غاصت) فيها عجلات السيارة وأصيبت بعدها بشلل تام .. عندها أسقط في أيدينا ورأينا أننا قد فُضحنا !! نزلنا وحفرنا ودفنا ودفعنا وسحبنا !! ولكن ماذا يصنع طفلان ساقاهما أدق من أصابع التويكس !! ولك أن تتخيل أيها القارئ وأيتها القارئة أن الجو كان صيفًا ملتهبًا .. (ومن زود العفرتة) لم

نلبس الأحذية .. فأكلتنا الرمضاء من تحتنا وشوتنا الشمس من فوقنا .. ولم نجد حيلة .. وبعد محاولات وتفكير توكلنا على الله تعالى وبدأنا نبحث عن أخشاب وألواح وحجارة نضعها تحت العجلات حتى نخرج من هذه الورطة !! بحثنا يميناً وشمالاً هنا وهناك زنقة زنقة حتى وجدنا ما يكفي والحمد لله .. وضعنا كل ما جمعناه تحت العجلات ثم حركنا السيارة بقوة .. فتحركت وخرجنا سالمين .. عندها أعدنا السيارة لمكانها قبل عودة نسيبنا بدقائق قليلة !! والحمد لله على الستر!!

..

استمرت الاختلاسات والتي تخللتها مواقف كثيرة بطبيعة الحال ..

تطور الأمر .. واشترى أخي وليد سيارة وبقيت بلا سيارة لأنه يكبرني بحدود أربع سنوات .. ولكن ومن مبدأ (فلما اشتد ساعده !!) بدأت أختلس سيارته لأني كنت أرى أن (ما فوقه ريشة) !!

اختلست سيارته مرة وحين حركتها ارتطمت مباشرة بسيارة أخرى كانت واقفة في الخلف .. فما كان مني إلى أن أعدت السيارة لمكانها و (بلعت العافية) !! والحمد لله أن تلك الحادثة لم تبق أي أثر .

..

..أما حادثة العيد فكانت متميزة ..

في بدايات المرحلة المتوسطة .. وفي آخر ليلة من رمضان .. كان الناس يتهيأون للعيد بأخذ قسط من الراحة قبل صلاة الفجر .. ولكنني كنت أتهيأ لأمر آخر ..

تقلبت في الفراش لساعة أو ساعتين .. ولكن وبحكم أنني تعودت على السهر في رمضان لم أستطع النوم ليلة العيد .. وكان كل أهلي يغطون في نوم عميق .. وغالب الجيران كذلك .. عندها قفزت إلى الذهن الهواية المفضلة وهي اختلاس إحدى السيارات الخاصة بإخوتي .. وفعلاً قمت وسحبت المفتاح من جيب أخي وانطلقت لا ألوي على شيء إلا قيادة سيارته لمدة خمس أو عشر دقائق على الأكثر ..

تم الأمر على خير ما يرام ..

فقد تجولت في حارتنا لمدة عشر دقائق تقريبًا ولكن (الوضع أعجبني) فبدأت أتجوّل وأجرب تغيير السرعات وطريقة الوقوف بسرعة .. و وو كل ذلك رغبة في تطوير المهارة !!

ولا أخفيكم سرًا إن قلت إنني نسيت نفسي وغرقت في سعادة غامرة .. وعشت نشوة القيادة التي لا أنساها!!

ولكن أثناء التجول بالسيارة وحينما كنت بعيدًا عن البيت فجأة توقفت السيارة في وسط الطريق ..

ما الأمر ؟ لا أدري .. احترت ماذا أفعل .. حاولت إعادة تشغيل السيارة فلم أستطع .. كررت المحاولة فحصلت على النتيجة نفسها ..

عندها نظرت إلى الساعة فإذا هي تشير إلى قرب موعد أذان الفجر .. عندها سيستيقظ أخي ثم لا يجد سيارته .. ما هذه المصيبة؟

وحينما كنت أحاول إعادة تشغيل السيارة مر بجانبي رجل من الجيران من الجنسية السورية .. فقلت في نفسي الحمد لله جاء الفرج .. لأنه كان يعمل في ميكانيكا السيارات !! عندها مباشرة قلت له: السيارة توقفت .. هل تعرف ما السبب؟ فقال لي: (يمكن مشرّقة .. خليها دقيقتين بعدين شغّلها) ثم دخل بيته ولم يلتفت لي !!

عندها قلت في نفسي .. حسنًا سأنتظر دقيقتين فقط لأن وقت الفجر قد أزف .. وبعد دقيقتين أعدت المحاولة ولكن لا جديد !! وقتها قررت أن أتخذ الإجراء النهائي .. وهو أن أدفع السيارة حتى أعيدها البيت !! عصامية غير مسبوقة ولكن لم توجّه !!

وفعلاً بدأت أدفع وأدفع وتعبت كثيرًا !! وأثناء عملية الدفع أذن المؤذن لصلاة الفجر معلنًا دخول يوم عيد الفطر السعيد ولكن لغيري !!

وقتها كنت أرقب السيارات التي تمر على الطريق عَلّي أرى شخصًا أعرفه فيساعدني ولكن للأسف لم أر أحدًا .. إلا شخصًا واحدًا فقط مر بسيارته بجانبي ثم توقّف .. فقلت الحمد لله جاء الفرج .. ولكنه لم يكن كذلك، لأن الذي أوقف سيارته هو أخي

صاحب السيارة التي (أدفدفها) .. ياللمصيبة !! أعانك الله يا يوسف على الضرب والتوبيخ والفضيحة .. ومتى؟ في يوم العيد !!

عندها قال لي أخي: أقفل أبواب السيارة .. وتعال معي أوصلك للبيت .

وحين أقفلت أبواب السيارة وتركتها على قارعة الطريق ركبت معه منتظرًا أحد صواريخ الجو جو الذي (سيدير صابري) كما تعودت في حالات سابقة !! ولكن شيئًا من ذلك لم يحصل والحمد لله ..

فقط أوصلني للبيت بكل رفق ثم قال لي: اذهب واستحم والبس ثياب العيد .. وكل عام وأنت بخير !!

ونتفاهم بعد صلاة العيد .. ياه .. كل شيء جميل إلا الجملة الأخيرة .. (نتفاهم بعد صلاة العيد) الله يعين ..

وحين انتهينا من صلاة العيد اجتمع إخوتي عند والدتي رحمها الله وكنت وقتها أتولّى موضوع القهوة والشاي وأخدم بكل ما أستطيع من قوة وحماس .. حينها دخل أخي صاحب السيارة وحان وقت التفاهم !! لكنه عانقني وقال: كل عام وأنت بخير .. ولقد سامحتك لأن اليوم عيد !!!!!!!!!!!!

الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله .. اللّهُمَّ اجعل كل أيامنا عيدًا !

وبهذا طويت صفحة هذه المغامرة بنتيجة مشرفة ومرضية لجميع الأطراف .

..

لننتقل إلى ذكريات أخرى كانت في الوقت نفسه تقريبًا .. ومع الأخ نفسه ! ولا أدرى لماذا ابتليت بذلك الأخ بعينه!

كان هذا الأخ حريصًا عليّ وعلى دراستي .. وكان يصطحبني معه للمسجد حين يقترب موعد الامتحانات النهائية فيتابع دراستي ومذاكرتي ..

وقتها كان يشاركنا بعض الإخوة .. فيحضرون للمسجد نفسه من بعد صلاة العصر وحتى ساعة متأخرة من الليل أحيانًا ..

وبحكم أن المقررات في المرحلة المتوسطة قصيرة .. فقد كنت ولله الحمد انتهي من المذاكرة قبيل صلاة العشاء .. ثم أبحث عن أي أسلوب من أساليب التسلية ! كي أمضي به الوقت حتى يعيدني أخي إلى المنزل ..

خرجت مرة أحوم حول المسجد .. فشاهدت سيارة أحد الإخوة الذين معنا في المسجد وقد تعطلت إحدى عجلاتها ..

انتهزتها فرصة فذهبت له بسرعة وكان اسمه نبيل .. فقلت له: يا نبيل .. إحدى عجلات سيارتك متعطلة فهل تريد أن أصلحها لك؟

وقتها كان مشغولاً جدًا بالمذاكرة لأنه كان في السنة الثالثة الثانوية .. ومباشرة قال: نعم ،، خذا هذا مفتاح السيارة وحاول تبديل العجل .. مع الشكر الجزيل ..

عندها أخذت المفتاح وذهبت مسرعًا للسيارة .. لأنني كنت أخطط لأمر ما!!

كنت أنوي تبديل العجل المتعطل بالعجل الاحتياطي ثم أمارس هوايتي في اختلاس سيارته!

وبالفعل .. أبدلت العجل بسرعة .. وامتطيت صهوة السيارة وبدأت (أبرم) حول المسجد ..

ولكن أثناء إحدى (البرمات) شاهدت أخي واقفًا على باب المسجد !! عندها زدت في التجول بالسيارة علّه يدخل المسجد لأنني قلت في نفسي إنه ربما خرج من المسجد لتغيير الجو قليلاً .. ولكني مررت عليه مرة أخرى فإذا هو مكانه وينظر إليّ من بعيد .. عندها قلت .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. والمشكلة أن تلك الأيام لم تكن أيام عيد !!

استسلمت للأمر الواقع .. وأوقفت السيارة .. ونزلت متجهًا إليه .. ولما اقتربت منه أحسست بيد ممتلئة تغطي نصف وجهي ثم تدفعني بسرعة لألتف حول نفسي ثلاث أو أربع مرات !! بالعربي تلقيت (طراق) حاميا وسريعا لأن أخي قرر وقتها ألا عذر مقبولا حينئذ .. وكان معه حق .. إلا الضرب على الوجه لأنه لا يُنسى أبدًا ..

وبعد ذلك (الطراق) تلقيت اثنين أو ثلاثة من أمثاله حتى تداخلت أمامي الأنوار والأجسام والأشكال ببعضها وأصبحت لا أفرق بين أخي وبين منارة المسجد التي خلفه!!

عندها أخذ مني المفتاح وقال اذهب إلى دروسك وكتبك!!

ولا يزال إخوتي يتذاكرون تلك الحادثة ويضحكون رغم مرور أكثر من عشرين سنة عليها !

..

آسف على الإطالة .. لكن أحب أن أقول أن هذه العادة تطورت نوعًا ما بعد الكبر ..

خذ هذا الموقف الغريب!!

..

قصة بدر عوض كانت تاريخية بكل صدق !!

فقد كنا في رحلة برية مع إخواني وأبنائهم ..

وقتها قلت في نفسي .. لِمَ لا أقدم للشباب الصغار مفاجأة من نوع محبب لهم .. وهو التفحيط !!

فناديت بأعلى صوتي: من أراد الذهاب معي في (الوانيت) الفلاني فليركب بسرعة ..

عندها تقافز الشباب إلى السيارة .. وكان عددهم ١٣ شابًا!!

فحركت السيارة .. وذهبت إلى شعيب جاف قريب من المخيم .. وعندها قررت أن أبدأ المفاجأة ..

فبدأت بالتفحيط وسط تصفيق وتصفير الشباب الذين معي .. وعندما (أعجبني الوضع) زدت في التفحيط حتى بدأت أفقد السيطرة على السيارة ..

بدأت السيارة بالانحراف الشديد يمينًا وشمالاً مع محاولات فاشلة للسيطرة عليها ..

خفت وقتها أن تنقلب السيارة ..

وكيف سيكون مصير هؤلاء الشباب الذين أغلبهم ركب في (الحوض) ..

ومما زاد الطين بلة أنه في أحد الانحرافات القوية لجهة اليمين انفجر أحد الإطارات .. ثم انحرفت السيارة جهة اليسار فانفجر الإطار الآخر !! ولا تزال السيارة تحكم نفسها !!

ولك أن تتخيل الموقف .. قائد السيارة (متشعمط بالدركسون) والسيارة تنحرف يمينًا ويسارًا بسرعة جنونية .. والغبار ملأ الدنيا .. حتى أذكر أنه بعد أن توقفت السيارة كان وجهي ووجوه كل الشباب مليئة بالغبار ولا نكاد نرى !!

لكن رحمة الله ولطفه سبقا كل شيء .. فهدأت السيارة وتوقفت بسرعة!!

نزلنا من السيارة وكأننا وُلدنا من جديد ..

ووالله العظيم أنني لا أزال .. ولن أزال بإذن الله أحمد ربي على السلامة من تلك الحادثة ما حييت .. لأن الموت كان قريبًا منّا ..

ومن ساعتها .. وأبناء إخواني وبعض أقاربي يسمونني بـــ: بدر عوض .. المفحط المشهور في الرياض!

...

من العادات السيئة التي لم أستطع الفكاك منها .. قيادة السيارة حتى الرمق الأخير من البنزين !!

حالات كثيرة جدًا توقفت فيها السيارة بسبب انتهاء الوقود .. مرة كنت عائدًا من عملي في كلية المجتمع بالخرج .. فتوقفت السيارة بين الخرج والرياض .. وحتى الآن فقد اشتريت (جالونًا) خاصًا بالوقود ووضعته في السيارة لأنني سأحتاج له يومًا ما بالتأكيد

..

موقفان سريعان أختم بهما ..

الأول هو أنني كنت أقود سيارتي في شارع الأربعين في الملز في حي الرياض .. ووقتها .. قلت في نفسي: لم لا أراجع بعض سور القرآن القصيرة؟

فوقع الاختيار على سورة المطففين .. وبعد الاستعاذة والبسملة كنت أنظر في المصحف واستفتحت السورة: (ويل للمطففين ...) ولم أفاجأ إلا بسيارتي ترتطم بالسيارة التي أمامي !! حادث غريب وسريع جدًا .. ولكن آثاره كانت خفيفة والحمد لله .. عندها

تعلمت درسًا وهو أن القيادة وظيفة لا يمكن أن يزاحمها شيء حتى تلاوة القرآن من المصحف!

..

وحتى وقت قريب .. لازالت المواقف ترد عليّ أثناء القيادة ..

فقبل شهر تقريبًا كنت أقود سيارتي في أحد شوارع سيدني .. عندها أوحى لي الشيطان !! أن ألقي نظرة سريعة على صفحتي في الفيسبوك .. ففتحت جهازي الآي فون ثم فتحت الفيسبوك .. ثم غرقت فيما كتبه الأصدقاء من مشاركات ومقاطع فيديو وغيرها .. لكني رفعت رأسي فإذا بالسيارات أمامي كلها واقفة تمامًا بسبب الزحام .. وكنت وقتها أقود السيارة بسرعة نوعًا ما .. عندها لم ينفع لا بدر عوض ولا غيره .. حاولت أن أوقف السيارة بسرعة وأنحرف بها يمينًا ويسارًا حتى أخرج بأقل الخسائر .. كل هذا في غضون ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ فقط .

والحمد لله .. انحرفت بالسيارة جهة اليسار حيث لا سيارات هناك .. لكن ارتطم جزؤها الأيمن بإحدى السيارات التي كانت أمامي فتطاير زجاج (المراية) الجانبية ..

أوقفت السيارة بعدها .. وأوقف الشخص الآخر سيارته فنزلنا وتفقدنا السيارات ولكن لم يكن هناك أضرار على سيارته والحمد لله .. فانصرف كلٌ منا إلى طريقه ..

.....

١٢. مع قناة المجد

زرت مرة المعرض والمؤتمر الدولي للتعليم العالي .. في الرياض..

تفاجأت بعدد الزوار المهول !! وأيضًا .. شعرت بفخر عظيم لما وصلت إليه المملكة العربية السعودية من قفزة تعليمية لا ينكرها أحد .. جامعات وكليات ومعاهد في كل مكان والحمد لله..

شاهدت في المعرض وفودًا وشخصيات كثيرة..

منهم .. وفد وطاقم من المخرجين والمصورين من قناة المجد..

عندها تذكرت أيامًا خلت .. كانت أيامًا جميلة..

أصدقكم القول أن تجربتي في الإعلام التلفزيوني كانت قصيرة ومغمورة إلى حد ما وأجزم أن أكثركم ليس لديه مشاهدة مستمرة لبرامج قناة المجد ..

ولكن رغم تلك الفترة القصيرة وهي أقل من ثلاث سنوات قضيتها في قناة المجد إلا أنها كانت متعددة الدروس والفوائد .

في قناة المجد ..عملت في برامج مختلفة..

فقد عملت ..

مُعدًّا ومُقدِّمًا لبرنامج المفكرة الدعوية وبرنامج أبعاد وبرنامج رسائل وتغطيات..

عملت مقدمًا لبرنامج ميادين ..

عملت مشرفًا لبرنامج حياة السعداء و برنامج موضوع الغلاف..

عملت منسّقًا لبرنامج جلسة مع المبدع محمد الدخيني، وبرنامج مسارات وبرنامج ثمرات العقول..

..

خلال عملي في تلفزيون المجد..
تعاملت مع شخصيات كثيرة جدًا .. مشايخ ومشاهير وأطباء وأساتذة جامعات ومؤلفين .. وغيرهم ..
وخلال تلك المدة كنت بطبيعة الحال أرقب أخلاق الضيوف الذين يأتون للتصوير .. فوجدتهم مختلفين .. لكن ممن لفت نظري في حسن أخلاقه وتواضعه..

الدكتور نزار حسين الصالح
وصاحب السمو الملكي الأمير نايف بن ممدوح
والشيخ سليمان الماجد
والشيخ يوسف الشبيلي
وغيرهم..
هؤلاء تعاملت معهم شخصيًا فألفيتهم أساتذة في الأخلاق قبل أن يبرزوا في تخصصاتهم .. وأزعم أنني تعلمت من أخلاقهم الكثير .. والحمد لله..
..
لكن البعض الآخر من ضيوف البرامج لم يكونوا كذلك..
فمع الأسف كان بعضهم متكبرًا بشكل ملحوظ .. البعض مثلاً كان يرفض الخروج مع ضيف آخر في برنامج حواري مشترك وإنما يريد أن يكون الضيف الوحيد في الحلقة .. والبعض الآخر كان يغضب ويرفع صوته ويزمجر حين يتأخر التصوير نصف ساعة أو ساعة إلا ربعا ..
وبعضهم لم يكن يحترم المواعيد .. وآخرون تطلب منهم المشاركة في برنامجٍ ما ثم يقول أحتاج أن أفكر في الموضوع ثم لا يزال يفكر حتى كتابة هذه الأسطر !! مع تجاهله التام للاتصالات المستمرة!!
وقسم من الضيوف استمرأ الوصاية على الناس وتوجيههم في كل شيء .. فكان يرى من نفسه الموجِّه والناصح والخبير والمرشد في جميع مناحي الحياة .. لذلك كان البعض من هذا

الصنف يتدخل في عمل الكادر الفني في القناة .. في طريقة التصوير .. في وضع الكمـرات في الأستوديو .. وأحيانًا حتى في اختيار المصورين .. وإذا لم يُستجب له يبدأ بانتقـاد قنـاة المجد في المجالس وهو لا يفهم في الإعلام حرفًا واحدًا ..

هذا النوع من البشر كانوا عالة .. أكثر من كونهم ضيوفًا..

..

دعونا ننتقل لموضوع آخر وهو المذيعون .. وقضية المكياج!!

لما كنت أقدم برنامج المفكرة الدعوية بشكل أسبوعي طلـب مـني مسـاعد المخـرج أن أضع المكياج .. فضحكت لأن الطلب كان مفاجئًا .. وقلت له هل أنت جاد؟ فقال: نعـم، ولم لا؟ فرفضت ذلك رفضًا قاطعًا..

بعدها صرت أتأمل في كل من يضع المكياج على وجهه من المذيعين الشباب حتى خرجت بفلسفة وهي أن المذيعين و المكياج على ثلاثة أنواع :

قسم يُعتبر له المكياج ضرورة بسبب بعض النتوءات أو اللطخات السوداء الصغيرة الـتي على وجهه.

وقسم ثان لا يقدم له المكياج كثيرًا لأن وجهه إعلامي ومناسب للشاشة بطبيعته .

وقسم ثالث (طاح بالمكياج عرض) وهم مـن نـراهم أحيانـا يُطِلُّـون علينـا في الشاشـة وكأنما خرج لتوه من كيس طحين!

..

لا شك .. أن العمل الإعلامي المحافظ كان جديـدًا وقتهـا .. فحصـل بـذلك اجتهـادات وتجاوزات وأخطاء .. ولكن لا ينكر أحد للمجد ورجالها سبقهم في هذا المضـمار الذي جَبُنَ عنه الكثير وقتها..

..

مواقف التصوير..

كثيرة جدًا هي مواقف التصوير..

ولكني أذكر بعضها هنا..

أذكر مرة أننا كنا نصور حلقة من برنامج المفكرة الدعوية مع زميلي الفاضل هشام القاضي..

وقتها كانت أيام عشر ذي الحجة أو أيام البِيض .. نسيت ..لكنّها كانت أيام صيام على كل حال..

وحين حل وقت أذان المغرب .. كنا مستمرين في التصوير..

ولكن أحد المصورين كان صائمًا .. فبدأ بتناول بعض التمرات أثناء تصوير الحلقة .. ثم انهمك في تناولها .. وفجأة .. ترك الكمرة وذهب مسرعًا للأخ هشام القاضي ليعطيه بعض التمرات..

وكان الأخ هشام وقتها يحاور ضيفًا انتظر طويلاً قبل بدء التصوير..

دخل صاحبنا للكادر واقترب من هشام ومن ضيفه وهو يقول: (افطروا يا شباب .. افطروا يا شباب .. حدا بدو تمر؟)

وقتها كنت أنظر لوجه الأخ هشام .. وهو يتقلب متعجبًا من تصرف هذا المصور..

ثم انفجر الجميع بالضحك .. حتى المخرج والإخوة في الكنترول..

والحمد لله أنها كانت حلقة مسجلة ولم تكن مباشرة!

واضطررنا بعدها لإعادة التصوير من جديد..

موقف آخر مع برنامج ميادين..

حيث قدمت مرة إحدى حلقاته مع الشيخ سعد البريك .. وقبل التصوير بدقائق اشتد عليّ الصداع .. لكني توكلت على الله وقدمت الحلقة لأنه لم يكن هناك وقت لتوفير البديل..

كان في تلك الحلقة أكثر من مفاجأة..

الأولى .. أنني أثناء استفتاح الحلقة أُصبت بدوار غريب .. وأحسست أن الطاولة أمامي تتحرك .. فتوقعت أن أسقط .. ولكن الله تعالى سلّم .. بعض أقاربي لاحظوا ذلك فأخبرتهم بالحقيقة .. فلاموني على تقديم الحلقة..

من مواقف تلك الحلقة أن المخرج وهو الأستاذ ماجد صلاحات لم يكن وقتها موجودًا .. فأناب شخصًا آخر ليس مخرجًا ولكنه عمل معه لفترة طويلة .. ولكن صاحبنا ذلك (جاب العيد) في بعض الأمور..

منها أنه أعطاني جهاز الاتصال (الأير بيس) ولم يكن يعمل جيدًا..

كان يصدر تشويشًا وأصواتًا مزعجة في أذني..

أذكر أن ذلك الشخص كلمني أثناء الحلقة وقال: معنا اتصال مع الأخت ناهد..

فقاطعت الضيف لأخذ الاتصال ثم قلت: معنا الأخت ناهد .. الأخت ناهد أهلاً بك ..

فتكلم رجل وقال: اسمي ماجد!!

حصل ذلك بسبب ذلك الجهاز المعطوب .. حيث لم أكن أميز الأسماء!!

مخرجنا المتعالم ذلك ختمها بموقف محرج نوعًا ما..

وهو أنني في ختام تلك الحلقة التفت إلى الكاميرا لأقرأ الخاتمة التي كتبتها والتي من المفترض أن يحركها المخرج حين أبدأ قراءتها .. الذي حصل هو أنه حركها قليلاً ثم اختفى كل شيء .. وكنت أعددت وقتها أفكارًا مهمة لأقرأها لأن فيها تلخيصًا لموضوع الحلقة .. لكن مع الأسف طار كل ما كتبت .. وعندها ختمت الحلقة بخاتمة تقليدية شكرت فيها الضيف والمشاهدين ثم السلام..

..

كنت مرة أقدم فقرة مدتها عشر دقائق في برنامج أبعاد مع أحد الضيوف..

بعد أن استفتحت الحلقة ذهبت وجلست أمام الضيف للحوار معه..

الذي لم أكن أتوقعه هو سرعة الضيف في حديثه .. واهتمامه الكبير بما يقول حيث كان متحفظًا جدًا.. فقد كان كلامه موزونًا وسريعًا ومختصرًا..

تفاجأت حقيقة بذلك .. وكنت حينما أحاول توسيع الفكرة معه يرجع ويعيد الكلام نفسه .. فانتهى كل ما لديّ في حدود خمس دقائق..

ولكني فتحت الباب لأسئلة الجمهور الذين كانوا يحضرون البرنامج في الأستوديو..

وعندما سألت الجمهور إن كان لديهم أسئلة رفع بعضهم يده فأشرت إليه ليلقي السؤال على الضيف .. وكل ذلك حتى أملأ الوقت بشيء لا يدرك المشاهد أنه (تضييع للوقت)..
ولكن المشكلة كانت مع المخرج لأنني لم أقل له إن هناك أسئلة للجمهور..
وذلك يترتب عليه الاهتمام بأماكن الكمرات حتى تصور كل من يتحدث أثناء الحلقة وليس الضيف والمذيع فقط..
وقتها .. وعلى الهواء مباشرة .. كلمني المخرج وقال: لماذا لم تقل لي إن هناك أسئلة للجمهور حتى أستعد؟ .. ثم بدأ بالتوبيخ والتأنيب .. وأنا أشير إليه معتذرًا عن ذلك ولكنه يعيد ويكرر .. ولاحظ أخي القارئ أننا كنا على الهواء!!
..
ومن داخل الكنترول كانت هناك مواقف..
..كنت أشاهد أشياء لأول مرة تمر عليّ في حياتي..
منها أن المُخرج كان إذا دخل الكنترول ينقلب إنسانًا آخر .. لأن هذا أساس اللعبة .. ولا أنسى المواقف التي رأيتها من ماجد صلاحات أو ياسر شعبان حيث كانا (يمسخران) بمهندس الصوت أو المونوتر أو غيرهما حين يخطئون في البرامج المباشرة ويتلفظون عليهم بأقذع وأشد الألفاظ..
ثم بعد انتهاء الحلقة يخرج الجميع وهم يتضاحكون وربما تناولوا وجبة الغداء أو العشاء بكل أخوية.
..
من المواقف أيضًا أذكر أنني قدمت حلقة في العيد بعنوان: تهانينا..
وكان موضوعها: العيد والأمن الصحي..
ضيفنا الفاضل كان طبيبًا وركّز وقتها على الآثار الخطيرة لمدن الألعاب الترفيهية..
وقال: تأتينا في قسم الطوارئ عشرات الحالات أيام العيد .. بسبب حوادث مدن الألعاب والملاهي .. ثم بدأ بسرد الأرقام والحالات وبعضها وصل للشلل والعياذ بالله..
عندها كلمني المخرج .. ونحن في أثناء التصوير وقال لي:

(دانتو خربتو بيوت الناس الكبار .. بتوع الملاهي دول راح يبهدلوكم) .. وظل على هذه الحال .. يمزح ويطلق النكات .. وكنت أحاول إسكاته .. لأنه ليس وقتًا للمزح..

ولكنني عرفت بعد ذلك أن هذه عادته مع الجميع..

..

ما الذي تعلمته من قناة المجد..

استفدت من عملي في قناة المجد أمورًا كثيرة منها:

إقامة علاقات متينة مع شخصيات كبيرة لها ثقلها في المجتمع.

عرفت أن الإعلامي بيده سلاح لا يضاهيه أي سلاح .

تعلمت أن خمس ثوان تخرج فيها على الشاشة تعدل خمس مقالات مكتوبة .

تعلمت أن الإعلامي يجب عليه أن يحذر كل الحذر من الكبر واحتقار الناس .. لأن الكاميرا لن تدوم لك ولأن الإعلام كشهرة وسمعة إنما هو فقاعة كبيرة قد تنفجر فتخسر كل شيء .

تعلمت أن الإعلام بشكل عام والإعلام التلفزيوني بشكل أخص يأخذ أكثر مما يعطي .. فإن لم يتدارك الإعلامي نفسه معرفيًا بالقراءة المكثفة وحضور الدورات فسيجد نفسه يومًا من الأيام كالآلة .. يدخل الأستوديو فيقرأ ما كُتب له ثم يذهب للبيت!!

لذا من الأفضل بلا شك أن يكون المذيع هو المعدّ وأن يركز على برامج تفيده وتفيد الناس ويُحضّر للحلقة تحضيرًا متينًا بالقراءة وسؤال أهل الاختصاص وغير ذلك حتى يستفيد ويبني المعرفة لديه ..

تعلمت أن أتشبث بمن تعرفت عليهم وكانوا من خيرة الناس لأنني تبيّنت بما لا يدع مجالا للشك أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة .. وبعضهم حديد (مصدِّي)!

عرفت بعد هذه التجربة أن من جرّب الإعلام وألف الكمرات .. فمن الصعب أو المستحيل عليه أن يتركه .. حتى لو ابتعد عنه لسنوات .. والحمد لله أن عوضني بإذاعة القرآن الكريم في سيدني حتى أشارك فيها وأقدم بعض البرامج بما لا يتعارض مع دراستي.

تعلمت أن الإخلاص للفكرة والعمل عليها والتضحية لها لابد وأن يـأتي بنتيجـة بـإذن الله تعالى وأقصد هنا الجهد المبارك الذي قام به الأستاذ فهد الشـميمري جـزاه الله عـن الإعلام المحافظ خير الجزاء .

تعلمت أن الإدارة فن ولعبة لا يستطيعها الأعم الغالب من الناس .

عرفت أن الأصل في الناس الطيبة وحب الخير ..

عرفت أن الأعم الغالب على الشعب السعودي هو حسن الخلق والتديّن.

تعلمت أن خطأ يسيرًا أو زلة لسان في برنامج مباشر يمكن أن تلغي تاريخك الإعـلامي كله .

.....

١٣. مع طائر الببغاء

أحب طائر الببغاء..

زرت محلات الطيور كثيرًا في السعودية لمشاهدته..

قبل السفر للبعثة اشتريت ببغاء من النوع الأفريقي الرمادي..

كان جزءا من عائلتنا..

كان يردد دائمًا:

السلام عليكم .. نسيبة .. يوسف .. ريم..

كان إذا أحس بنا داخلين للبيت يبدأ يردد: السلام عليكم .. السلام عليكم .. ولا يسكت حتى نرد السلام!!

ورغم أنه كان مفترسًا نوعًا ما !! ويعضنا إن استطاع إلا أنه كان مؤنسًا لنا بشكل كبير..

اقترب السفر للبعثة فأعلنت في النت عن رغبتي في بيعه .. فاشتراه أخ فاضل من محافظة القصب .. جاء لبيتي في الرياض وأخذ الببغاء ثم عاد .. يقول لي: أنا أحب الببغاوات وهذا الرابع الآن لدي!!

لا أكتمكم سرًا أنني لما عدت للبيت وجدت الحزن ظاهرًا على زوجتي !! تقول: أحس أن (الخاتمة قلّت لما بعناه) !!

..

انتقلت مع عائلتي إلى أستراليا ولكن لا يزال حب الببغاء في قلبي..

ذهبت إلى سوق الأحد في سيدني فأعجبني ببغاء أزرق من النوع الهندي ذي الدرة المطوقة

Indian ringneck

فاشتريته وأسميته (داني) لأن هذا الاسم موجود في العربية والإنجليزية!

داني هذا (أشغلنا اشغال)

حصلت معه مواقف كثيرة..

منها أنه كان في أول الأيام إذا شاهدني يأتي إليّ ويحاول الصعود عليّ حتى يستقر فوق رأسي!!

وهكذا حتى بدأت أمل منه !! فبدأت أضعه في القفص وأغلق عليه..

لكن أظن أنه (زعل علي) !! بعدها بدأ يعض كل من يقترب منه!!

...

من المواقف أنه مرض مرة فأخذته إلى الطبيب..

ولأول مرة أشاهد طبيبًا بيطريًا يتحدث معي باهتمام كبير جدا .. وكأن الذي بين يديه طفل صغير في حالة خطيرة .. (راس ماله ببغاء يا حبيبي) .. ولكن من تلك الزيارة أدركت أن الغرب بشكل عام يقدسون الحيوانات والطيور!!

وكان كلما دخل في بيتي رجل أسترالي يتوجه مباشرة للببغاء!!

بعد التشخيص قال لي الطبيب إن فيه أكثر من مرض !! ثم أعطاني العلاج لأضعه له في الماء لمدة أسبوعين..

وقبل أن أخرج طلب مني كامل بياناتي وعنواني ورقم هاتفي واسم الببغاء!!

ثم أعطاني العلاج مكتوبا عليه: اسم المريض: داني بن يوسف النملة !!!!!!!!! يعني صار عندي ولد اسمه داني من غير البشر!!

مشى الحال وتعافى داني..

..

من المواقف أيضًا أن داني طال منقاره كثيرًا وخفت على بنياتي منه .. لأنه لم يكن (قليّل خبث) .. سبحان الله كان يفكر ويعرف الأشياء .. وكان يزعل أحيانًا ويرضى أحيانًا أخرى..

فأخذته لطبيب آخر .. لكن هذه المرة كانت طبيبة..

لما وصلنا أدخلتنا المكتب ثم بدأت تتكلم عن داني وفصيلته .. ووو .. واستمر حديثها قرابة الأربعين دقيقة !! ثم قالت: الآن سأكشف عليه

فقلت لها: أريدك أن تقصي منقاره فقط!

فقالت: لا .. داني مريض لذلك يعض باستمرار .. فلا بد أن أكشف عليه!!

مسكت الطبيبة داني وقلّبته .. ثم قالت: أحتاج لآخذ عينه من السوائل التي في معدته !!

فأحضرت إبره طويلة طرفها غير حاد وأدخلتها في فمه حتى وصلت لمعدته ثم سحبت العينة..

ثم قالت لي: سأذهب بالعينة الآن إلى المختبر .. ويجب أن تنتظر حوالي ثلاثين دقيقة !! (يا من شرا له من حلاله علة) !!

بعدها جاءت وشرحت لي المشكلة في حدود نصف ساعة ثم أعطتني علاجًا أضعه في فم داني مرتين في اليوم !! وأعطتني أربع أوراق فيها توجيهات عامة، وفيها النباتات والخضراوات المفضلة لفصيلة داني والنباتات التي يجب ألاّ نعطيه إياها..

ثم خرجت إلى الاستقبال وأعطوني موعدًا بعد أسبوعين!!

أعطيت داني العلاج لمدة أربعة أيام ثم (سحبت عليه !!) لأن طريقة إعطائه للعلاج كانت أشبه بالمعركة .. وأنا (وراي دراسة وشغل) ..

..

من المواقف أيضًا .. أن الابن داني أصبح يستطيع الطيران قليلًا .. ومرة شاهد باب البلكونة مفتوحًا (فما صدق خبر) خرج من القفص ثم طار باحثًا عن الحرية .. (الأخ يحسب نفسه وائل غنيم) !!

خرجت أبحث عنه في كل مكان لأنه لم يكن يستطيع الطيران لمسافات بعيدة .. لكن للأسف لم أجده..

عدت للبيت فوجدت ابنتي الصغيرة غارقة في دموعها .. فقلت لها: لماذا تبكين؟ فقالت: لأن داني الآن ماعنده فاميلي !! تقول فاميلي لأن اللغة العربية عندها (وسع صدرك) !!

عندها قررت أن أطبع ورقة وأضع فيها صورة داني ورقم جوالي وأكتب فيها أنه مفقـود !!

وفعلاً علقت الورقة في مداخل ومخارج المجمع الذي أسكن فيه..

وفي صباح الغد .. في حدود السابعة اتصل عليّ شخص وقال:(هل فقدت البـغـاء الخـاص بك؟) فقلت: نعم .. فقال:(وجدناه في الشقة التي في الطابق الثالث) .. وكنت أسـكن في الطابق الرابع..

فقلت: حسنًا .. أنا قادم .. فلما نزلت وجدت امرأة عجوزًا يابانية تنتظـرني .. ثـم قالـت: تعال معي .. البغاء في بيتي..

فلما دخلت شـقتها وجـدت عنـدها أربـع قطـط وكلبًـا .. فقلـت: هـل تحبـين القطـط والكلاب؟ فقالت: نعم .. ثم قلت في نفسي: (ليش ما تاخـذين داني وتكملـين حديقـة حيوانات في بيتك .. وتفكينا منه) !!

أخذت داني .. وعدت به للبيت..

...

عرضت داني للبيع في النت ولكن (ماحولك أحد) !! راسلني شخص وقال إنه سيشتريه .. لكن (غابت شمسه) !! آخرهـا (صرف أبـو جـدي) حـين قـال لي: إن جـدتي توفيـت وسأذهب لقريتها وسأنفق بعض المال على السفر ولن يكون لدي مال لشراء داني!!

...

أذكر مرة أنني كنت أتحدث مع عامل النظافة في المجمـع الذي أسـكن فيـه .. فقلـت له تعال إلى شقتي .. عندي لك شيء جميل !! فلما دخل شقتي قلـت له: هـذا البغـاء لـك !! يمكن أن تبيعه بـ ٢٠٠ دولار مع القفص .. وبعد أن تردد قليلًا قـال لي: صـديقي يحـب البغاوات .. سأكلمه وأخبرك إن كان يريده أم لا !! وبعدها (سحب يسحب سحبًا) !!

ضقت ضرعا بداني لأنني كرهته!!

..

انتهت علاقتي مع داني حينما قررت السفر للسعودية في إجازة الكرسمس فأعطيته أحد أقاربي في سيدني وقلت: أبقه عندك حتى أعود .. وبعد فترة عدت لسيدني ولم أتصل على قريبي ولم يتصل عليّ !! كل ذلك حتى لا يعيد داني إليّ!!!

ثم شاهدته بعد أسابيع وسألته عن داني فقال: أتعبنا في البيت .. بدأ يلاحق قطتنا الصغيرة ويعضها !! لكننا أخرجناه من القفص وتركنا يطير خارج البيت !! ولا ندري أين هو الآن!!

وبهذا تنتهي قصة داني بن يوسف النملة !!

.....

١٤. مع العُبّاد وأصحاب القرآن

مواقف علقت بالذاكرة .. حول عُبّاد وأشخاص عاشوا مع القرآن الكريم .. أعرف أبطالها

..

هم بمجموعهم يرسمون لوحة تذكارية مكتوب عليها

..

ربنا الله .. وديننا الإسلام .. ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .. نعبد الله وحده لا شريك له .. لا نريد إلا ما عند الله تعالى من الفضل والنعيم والمغفرة..

فهل عرفت الأمم الأخرى رجالًا صادقين في التديّن .. وأئمة للمتقين مثل هؤلاء الصالحين من المسلمين

..

أم أن الأمم غير المسلمة عرفت أشخاصًا .. تديّنوا ففسدوا ثم قتلوا باسم الرب ! .. وحقدوا على البشرية .. واقترفوا الكبائر .. كل ذلك باسم التدين؟

لا نقول إلا الحمد لله الذي حفظ لنا ديننا من طبقة الكهنوت التي لعبت ببعض الأديان وخلقت واسطة بين الخلق والخالق

..

ولست أقصد من سرد هذه النماذج أن يزهد المؤمن في دنياه وكدّه وعمله .. بل أحاول رسم أحد جانبي التوفيق وهو حسن العلاقة مع الله تعالى .. والذي يكتمل بنجاح المؤمن في دنياه ووظيفته وعلاقته مع الناس وأخلاقه وأدبه

..

ديننا معشر المسلمين واضح سهل مباشر .. إن كان لك إلى الله حاجة فارفع يديك مباشرة وسل الله تعالى ما تريد .. ولن تحتاج لمتحنّث أو متعبّد يعينك ويوصل لك الدعاء كما يفعل أصحاب التديّن الضال من غير المسلمين

..

اللّهُمَّ أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين

..

وكما أن الإسلام هو دين الفطرة .. فينبغي أن يكون التديّن فطريًا .. خفيفًا .. سهلاً .. سمحًا .. في كل أحوالنا .. مع النفس ومع الآخرين..

نربط أنفسنا بالله تعالى بلطف..

ونعامل الآخرين برفق..

ورحم الله امرءًا سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى!

لننتقل للمواقف والنماذج

سيدي وإمام العُبّاد .. محمد صلى الله عليه وسلم .. كان في عبادته صفتان مهمتان .. الرفق والاستمرار .. وأنت أخي القارئ الكريم تعرف مواقف من عباداته عليه الصلاة والسلام في الصلاة والحج والاعتكاف أكثر مما أعرف..

أمة الإسلام العظيمة .. تابعت نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام في ذلك كله..

مواقف كثيرة خلدها لنا التأريخ تُبّيّن عظمة رجال الإسلام..
خذ مثالًا واحدًا فقط ..

الإمام الذهبي روى عن عالم اسمه ابن وهب أنه قال: (رأيت سفيان الثوري في الحرم بعد المغرب صلى ثم سجد سجدة، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء).. سجدة واحدة استغرقت الوقت ما بين المغرب والعشاء..
كيف وصل سفيان رحمه الله إلى هذه المرحلة من ترويض النفس؟

اللّٰهُمَّ أحينا مسلمين .. وأمتنا مسلمين .. آمين .. آمين.

..

اسمح لي يا صاحبي بسرد النماذج التالية التي تبيّن لك أن الخير موجود في أمة الإسلام إلى قيام الساعة.

..

طبيب كبير في تخصصه مقيم في الرياض .. يصلي الفجر كل يوم جماعة مع المسلمين في المسجد .. ثم يقرأ أذكار الصباح .. فإذا خرج الناس من المسجد .. أخذ مصحفه وبدأ يقرأ القرآن الكريم لمدة لا تقل عن ساعة أو ساعة ونصف .. وإذا أحس بالنوم يقوم ويمشي داخل المسجد .. وإذا لم يكف ذلك المشي فيخرج لدورة المياه يغسل وجهه ليذهب عنه النوم .. ثم يكمل المشي- ومراجعة القرآن الكريم في ساحات المسجد الخارجية .. وهكذا حتى ينتهي من الجزء الذي ألزم نفسه بمراجعته .. ثم يذهب للعمل بعد ذلك.

..

<u>موقف ثانٍ</u>

..

كنت واقفًا مع رجل فاضل كان إمامًا لأحد مساجد الرياض .. فمر علينا رجل سوداني

بسيط .. بيده أكياس وعليه ملابس رثّة .. سلم علينا وتحدث معنا قليلاً ثم ذهب .. عندها لم يأت في بالي أي شيء حوله سوى أنه عامل مثله مثل غيره .. لما ذهب قال لي ذلك الإمام الفاضل: هل تعرف هذا الرجل .. فقلت: لا ! فقال: هذا رجل من أهل القرآن .. يحفظ القرآن بالقراءات العشر .. لكنه يحاول أن يخفي نفسه عن الناس!!

..

السؤال مرة أخرى .. هل تعرف مثل هذه النماذج عند غير المسلمين؟

..

نموذج ثالث

..

رجل كبير في السن .. بطيء الحركة .. قليل الكلام .. كنت أقابله أحيانًا في أحد مساجد الرياض .. حدثني جار له أنه يصلي الفجر كل يوم جمعة في المسجد الجامع القريب من بيته ويبقى في المسجد يراجع القرآن الكريم حفظًا وفي أحيان كثيرة يختمه قبل دخول الخطيب!!

..

نموذج رابع

..

مسؤول كبير في الدولة .. صادفته مرة في منتزه برّي مختبئًا بعيدًا عن أعين الناس يقرأ القرآن بخشوع ظاهر.

..

وهنا دعوة صريحة .. لتكن صدورنا سليمة على المسؤولين .. لأن فيهم نماذج مثل ذلك الرجل الذي ارتبطت حياته بالقرآن الكريم

..

نموذج خامس

..

رجل أفغاني اسمه نجيب الله .. مقيم في سيدني .. مثقف جدًا .. يتكلم أربع لغات .. بما فيها العربية والإنجليزية .. قابلته في أحد مساجد سيدني .. فتحدثنا قليلاً .. لكن تلك المحادثة أثمرت صداقة لأنه سبق أن عمل في أرامكو في السعودية .. علمت من عبادته شيئًا عجيبًا .. من ذلك .. أنه يصلي الصلوات الخمس جماعة في المسجد ويتردد على المسجد على دراجته الهوائية .. ولا يثنيه عن ذلك برد أو مطر أو حر أو غير ذلك .. يستغرق الوقت تقريبًا ربع ساعة في الذهاب ومثلها في الإياب .. تصرُّفٌ مثل هذا في بلد لا يعين على طاعة الله تعالى كسيدني عمل كبير بلا شك.

..

نجيب الله هذا .. يبقى أحيانًا يقرأ القرآن في المسجد فإذا أحس بالملل يقوم فينظف المسجد كله و (يكنسه بالمكنسة الكهربائية) !! ثم يذهب للبيت ويعود بعد ساعة أو ساعتين ليشهد الصلاة الأخرى جماعة مع المسلمين.

..

نموذج سادس

..

في أحد الأيام بقيت في الحرم المكي قرابة نصف يوم لم أتحرك من مكاني .. اقرأ القرآن قليلاً ثم أنام ثم أعبث بالجوال .. وهكذا .. وخلال تلك المدة كنت أتابع رجلاً كبيرًا في السن كان قريبًا مني .. يقوم فيصلي ويطيل الصلاة .. ثم يدعو .. ثم يذهب ليطوف حول البيت .. ثم يعود لمكانه .. ثم يدعو ويستغفر ويذكر الله تعالى .. ثم يصلي ثم يذهب ليطوف .. وهكذا حتى صليت العشاء وانصرفت لمسكني .. وهو باق على حاله!!

..

نموذج سابع

..

في الحرم المكي أيضًا .. جلست مرة قريبًا من حلقات تحفيظ القرآن الكريم .. من بعد

صلاة العصر وحتى صلاة المغرب في وقت الصيف .. يعني قرابة ثلاث ساعات أو أكثر .. شاهدت العجب من طلاب التحفيظ .. من المواقف التي انزرعت في الذاكرة شاب صغير بدأ يقرأ القرآن حفظًا على أستاذه من بعد صلاة العصر مباشرة ولم يتوقف حتى أذّن المغرب .. الأعجب من ذلك هو أن أستاذه لم يصحّح الأخطاء أثناء القراءة إلا مرة أو مرتين!!

أكثر من ثلاث ساعات يقرأ القرآن الكريم حفظًا دون أخطاء تذكر!!

برأيك .. أيهما أحسن حالاً هذا الشاب أم آخر يتسمّر أمام اليوتيوب لثلاث أو أربع ساعات؟

..

نموذج ثامن

..

وحتى أختم نماذج العبادة التي عشتها في الحرم المكي أعطيك هذا الموقف السريع .. شاب صغير .. بقي في الحرم المكي لساعات وعاهد نفسه على ألا يخرج من الحرم حتى يُنهي سورة يوسف كاملة حفظا .. فحفظها عن ظهر قلب ثم خرج إلى مسكنه .. كان ذلك في أربع أو خمس ساعات.

..

نموذج تاسع

..

عامل نظافة .. قابلته في أحد أحياء الرياض .. لمّا شاهدني جاء إليّ يشتكي الحاجة .. ويطلب المال .. فقلت له: لديك وظيفة فلماذا تسأل الناس؟ فقال: الرواتب تتأخر كثيرًا وأريد أن أرسل المال لأهلي .. فتحدثت معه لبعض الوقت ثم عرفت أنه درس في مدارس تحفيظ القرآن الكريم في بنجلادش أو سيريلانكا (نسيت) فقلت له هل أختبر حفظك؟ فقال بكل ثقة: نعم. فاختبرته في مواضع متفرقة من القرآن .. من سورة البقرة .. والأعراف .. والإسراء .. وغيرها من سور القرآن .. فقرأ كل المقاطع دون أي خطأ!!

هل في غير المسلمين من يحترم كتابه المقدّس مثل ما نفعل نحن المسلمين؟ !!! اللّهُمَّ أحينا على الإسلام وأمتنا على الإسلام

..

نموذج عاشر

..

مُقرئ للقرآن الكريم .. من دولة مصر .. بلد الحفظة بلا منازع ! يقول تمر عليّ ثلاث أو أربع سنوات لا أفتح فيها المصحف !! لأني أتذكر كل حرف في القرآن الكريم وأعرف أين مكانه !! لما استرسلت معه في الحديث ذات يوم حدثني أنه لما كان شابًا كان يعمل في بيع الحليب .. وكان ينقل الحليب من قرية إلى أخرى على عربة يجرها حمار .. يقول: كان الحمار بطيئًا جدّا فكنت أستغل الوقت في مراجعة حفظي وكنت أراجع كل يوم تقريبًا عشرة أجزاء من القرآن الكريم!!

..

نموذج حادي عشر

..

شيخ جليل أعرفه .. إذا دخل رمضان يختم القرآن كل ثلاثة أيام .. فإذا دخلت العشر الأواخر يعتكف و يختم القرآن كل يوم!!

..

نموذج أخير

..

ريان الإندونيسي .. شاب يعمل مهندسًا للاتصالات في سيدني .. يصوم خمسة أيام كل أسبوع!!

..

هنا ينتهي المقال .. لكن لا تنتهي بركات أمة محمد صلى الله عليه وسلم ..

و كاتب هذه الكلمات ليس حتى قريبًا من النماذج السابقة .. ولكنه يحبهم كلهم .. ويرجو أن يحشر معهم مع نبي الهدى والرحمة محمد صلى الله عليه وسلم

..

اللّٰهُمَّ استعملنا في طاعتك .. وقربنا إلى أسباب مرضاتك .. واجعلنا من عبادك الصالحين..

.....

١٥.مع الإلقاء

أول مرة مارست الإلقاء فيها (أو التمثيل إن شئت) كانت حينما كنت في الصف السادس الابتدائي..

فقد مثلت دور مدير مدرسة على المسرح!!

ومن المضحك في تلك اللحظات أنه كان من المقرر في المشهد أن أتولّى نصيحة والد طالب مهمل وأطلب منه أن يتابع ابنه باستمرار .. حفظت النص كاملاً والذي كان فيه: (يا أبو فلان .. لازم تتابع ولدك أول بأول) .. وكانت لغة الحوار بالعامية مع الأسف .. المضحك أنني قلت في المشهد (يا أبو فلان .. لازم تتابع ولدك بأول بأول) !! فزدت حرف الباء !! ثم أحسست أن ثمة خطأ .. ثم كررتها مرة أخرى .. وثالثة .. .. ثم سكتُّ قليلاً .. ثم رابعة .. كلها أقول: (بأول بأول) !! والجمهور في دهشة ملحوظة .. حتى همس بأذني أحد القريبين وقال: (قل أول بأول) ولا تقل (بأول بأول) !! فانفرجت..

..

استمر الإلقاء في المرحلة المتوسطة .. وأذكر أن الأديب والشاعر الكبير الدكتور عبد الله بن سليم الرشيد كتب لي كلمة الطلاب المستجدين وطلب مني أن ألقيها أمام الناس .. كتب الدكتور الكلمة بخط يده ثم أعطاني إياها .. وكان فيها فيما أذكر: (يجب علينا نحن الطلاب أن نهتم بما يلقيه علينا أساتذتنا من نصائح وتوجيهات) .. ولكن لأنني كنت في الصف الأول المتوسط والخط كان باليد فقد قرأتها أمام الدكتور عبد الله أثناء التدرب على الكلمة هكذا: (يجب علينا نحن الطلاب أن نهتم بما يلقيه علينا أساتذتنا من فضائح وتوجيهات).. عندها انخرط الدكتور في نوبة ضحك غريبة وبدأ جسده يتمدد طولاً وعرضًا .. ثم أخبرني أنها (نصائح) وليست (فضائح)!!

..

في المرحلة الثانوية استمر الإلقاء والحمد لله .. أذكر أنني توليت تقديم الحفل الختامي لمخيم عرفاء الطلائع الذي نظمته كشافة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .. وكان من المواقف المضحكة وقتها أنني كنت أنادي أسماء الوفود التي أتت من كل مكان في المملكة العربية السعودية ليتم تكريمهم واستلام الشهادات .. ولكنني نسيت وفد المدينة المنورة برمته !! لكن تداركت ذلك قبل انتهاء الحفل .. ثم لما انتهى الحفل وخرجنا هجم عليّ المدنيون وكادوا يقطّعونني إربًا إربًا !!

..

في المرحلة الجامعية واصلت الإلقاء .. وخطبت بعض خطب الجمعة .. أذكر مرة أنني كنت مرتبكًا فقلت في الدعاء (اللّهُمَّ اجعلنا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات) !! وكان الحضور رجالاً بطبيعة الحال!!

..

ما بعد الجامعة قدمت حفلات رسمية كثيرة الحمد لله في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والملحقية الثقافية في أستراليا ونادي الطلاب السعوديين في سيدني وغيرها..

..

قناة المجد صقلت موهبتي بقوة وذكرت ذلك في ذكريات (مع قناة المجد) .. ولكن لا زلت أقول أن التحدث أمام كاميرا التلفزيون بالنسبة للمذيع وخصوصًا في برنامج مباشر أصعب ألف مرة من التحدث أمام الناس مهما كان عددهم..

..

بسبب هذه التجربة في الإلقاء .. أدركت أن هذا الفن مهم وصعب في ذات الوقت .. فتولّد لديّ اهتمام كبير به..

اشتريت وقرأت كتبًا كثيرة في فن الإلقاء..

وحضرت خمس دورات في اللغتين العربية والإنجليزية..

وحتى أختصر لك الطريق أقول لك: أفضل ما وجدت هو كتاب الدكتور طارق السويدان (فن الإلقاء الرائع) .. فقد شاهدت الدورة مرتين وكتبت كل شيء مهم قاله الدكتور .. وقرأت كتاب الدورة أكثر من مرة..

..

الآن ولله الحمد أستطيع القول أن لديّ القدرة على التحدث باللغتين دون أدنى ارتباك .. ولكن حين يكون الحديث بالإنجليزي فأحتاج وقتًا أطول للتحضير..

..

اسمح لي يا صاحبي .. أن قدم لك هنا عشر نصائح سريعة بعد هذه التجربة..

الأولى: تدرَّب على الكلمة التي تريد إلقاءها بصوت مسموع .. كرّرها عشرين مرة على الأقل وإن تيسّر لك أن تتدرب في مكان الإلقاء المفترض (مسرح، قاعة، مسجد) فهو أفضل.

الثانية: إن كان لديك كلمة مهمة في محفل رسمي ضخم فلا بد أن تمر كلمتك على ما يمكن أن أسميه بـ (صناعة الإلقاء) وهو ليس فقط مجرد تدرب على مهارات بل هو أكبر من ذلك لأنه يشمل التالي:

أولاً/ وضع هدف للكلمة .. وقد يكون الهدف متعددًا..

ثانيًا/ اكتب الكلمة بنفسك ولا تطلب من أحد أن يكتبها لك..

ثالثًا/ اذهب إلى شخص متخصص في موضوع الكلمة .. لنفترض مثلاً أن موضوع الكلمة هو البطالة .. فيجب أن تذهب أو تتصل بشخص له علاقة بالموارد البشرية أو يعمل في وزارة العمل أو نحو ذلك لتقرأ عليه الكلمة .. أو أرسلها له .. والفائدة من هذه الخطوة هو التصحيح الموضوعي للكلمة وتجنُب الأخطاء التي قد تقلل من قيمة كلمتك..

رابعًا/ اذهب إلى متخصص لغوي واقرأها أمامه .. ويمكن أن تفعل ذلك عن طريق الهاتف .. والغرض من هذه الخطوة هو التصحيح اللغوي.

خامسًا/ استمر في التدرب على إلقاء هذه الكلمة أمام أي أحد .. وليكن مثلاً صديقًا أو زوجةً أو غيرهم.

من خلال تجارب سابقة وجدت أن من المفيد جدّا تسجيل الكلمة بالفيديو إذا كنت لوحدي .. ثم مشاهدة ذلك فيما بعد .. وبلا شك سيتبين لك بعض الأخطاء..

وأكرر أن هذه الخطوات مهمة فقط للكلمات المهمة والتي تكون في محفل كبير أو مسجلة بالتلفزيون أو غير ذلك.

..

الثالثة: لا تتكلف كثيرًا في اللغة العربية وتختار كلمات غريبة وتنطقها بلغة فجة .. فقط اختر الكلمات الشائعة الصحيحة واضبط بعض آخر الكلمات بالشكل والبعض الآخر سكّنه .. فهذا يكفي .. فإن البلاغة ما فهمته العامة ورضيته الخاصة .. ولكن تجنب اللحن .. مثل رفع المنصوب أو جر المرفوع .. لأنه مرض ونقص وعيب كبير .. حتى وإن وقع فيه غالب الناس و كثير من الخطباء مع الأسف.

الرابعة: الإلقاء مهارة لا تتطور إلا بالممارسة .. ولكن احذر من شهوة الإلقاء لأنها مميتة .. مثلها مثل شهوة الطعام إذا لم تُضبط!!

الخامسة: حضرت ندوات ولقاءات كثيرة مع علماء غربيين وشرقيين مشهورين كان بعضهم مع الأسف سيئًا جدًّا في الإلقاء فأفسد المحاضرة بمهاراته الإلقائية الهزيلة .. فلا تقتل المعرفة التي عندك بسكين الإلقاء الهزيل..

السادسة: لكل مناسبة مهارات خاصة في الإلقاء (خطبة الجمعة غير كلمة الحفل غير اللقاء التلفزيوني وكلها إلقاء)

السابعة: كن جريئًا في إلقاء الكلمات أو تقديم الحفلات وقل شيئًا جديدًا .. ولا تكرر ما تعوده الناس .. بمعنى أن أسطوانة : (سعادة .. سعادة .. سعادة .. أيها الحفل الكريم .. في الختام ..) أسلوب مكرر وباهت!!

الثامنة: استفد من المتميزين في الإلقاء ولكن لا تقتل طموحك وتكون نسخة مكررة منهم ..

التاسعة: ركّز على وحدة الموضوع في حديثك ولا تدخل المشاعر أو المواقف الحالية في كلمتك دون أن تضبطها ثم تختلط عليك الأفكار وتخرج من كلمتك وقد تشتت

الجمهور .. حاول أن تجعل أفكارك كسلسلة متصلة وقوية .. ومترابطة بصورة منطقية .. وحاول أن تمهد لكل فكرة تأتي بعد الأخرى..

العاشرة: زِن كلماتك واختصرها لتستطيع تقديم جميع أفكارك في الوقت المتاح .. فقد قال بعض الحكماء: "خير الكلام ما أغنى قليله عن كثيره"، وقالوا: "خير الكلام ما لم تحتج إلى كلام بعده.. "

..

وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى..

.....

١٦. عندما ودعت أبي

في محافظة البكيرية في القصيم عام ١٤١٢ للهجرة حيث كنا نُصيّف هناك .. انتهينا من تناول طعام الغداء في ظهر يوم حار مُشمس لم يخلُ من فيح جهنّم!

ذهب والدي رحمه الله إلى غرفته لأخذ قسطٍ من الراحة..

بعد دقائق سمعته يسعُل بصوت قويّ .. وكان وقتها منحنيًا على مغسلة اليدين..

ذهبت لأنادي أمي رحمها الله .. فجاءت مسرعة مفجوعة..

عاد بعد دقائق إلى غرفته ومعه أمي .. ثم استرخى قليلاً .. وكنت وقتها واقفًا عند باب الغرفة أشاهد..

لم يهدأ أبي .. بل استمر يسعُل .. ووجهه يتلوّن..

طلبتْ مني أُمّي أن أذهب إلى جيراننا لأطلب منهم إيصال أبي للمستشفى .. لأنني كنت وقتها طفلاً صغيرًا لا يستطيع قيادة السيارة..

ذهبت للجيران .. فطرقت الباب ثم خرج أبوهم وكان كبيرًا في السن ضعيفَ البصر .. لكنه كان يقود السيارة على كل حال!!

أخبرته القصة .. فتنهّد .. ثم قال: (آمنّا بالله .. أنا جاي .. أنا جاي)..

حضر بسرعة ثم أوصل والدي إلى مستشفى البكيرية العام..

ولا ندري ماذا حدث بعد ذلك..

بقيت أمي قلقة جدًا..

ولما أقبل المساء طلَبَت مني الذهاب للمستشفى .. للسؤال عن حال أبي..

ذهبت قُبيل غروب الشمس..

ذهبت مشيًا على الأقدام .. ولم يكن المستشفى قريبًا .. بل بعيد .. والطريق ليست آمنة!! ولكن كما قال المعرّي:

تَحَمّلْ عَنْ أَبِيْكَ الثِّقْلَ يَوْماً ** فَإِنّ الشّيْخَ قَدْ ضَعُفَتْ قِوَاهُ

وصلت غرفة والدي فألفيته نائمًا..

بقيت عنده لدقائق .. ثم انتبه .. وقال لي: (حياك الله .. أبشركم أنا بخير) !! ولكن ملامح وجهه لم تكن تقول ذلك .. لأنه كان مصابًا بجلطة في القلب!!

..

دعونا نقف قليلاً .. مع أبي..

إبراهيم بن حمد النملة..

الرجل المهيب..

الذي لا تستطيع أن تضع ناظريك في ناظريه..

تعب كثيرًا في حياته..

تولى مهام ومسؤوليات ثقيلة جدًا..

كان يرعى أطفالاً صغارًا وأمًا وأبًا وبعض الأقارب .. وكلهم كانوا في بيت واحد!!

أمضى ردحًا من السنين (سبّاكًا) .. يعمل في الصباح والمساء .. عمل في أماكن كثيرة منها الكويت!!

ترك العمل مع الحكومة لوعود ساقها أبناء عمّه .. ولكنّه مع الأسف ذاق بسببهم ظلم ذوي القربى .. فاعتمد على خالقه سبحانه .. واستقل بنفسه .. فعاش ومات عزيزًا رحمه الله..

كنا لا نستطيع أن نمزح معه بطبيعة الحال..

كان كل إخواني وأخواتي يهابونه .. الكبير منهم والصغير..

أذكر من المواقف أن أحد إخوتي ذهب مرة لأسواق العثيم لشراء بعض المواد الغذائية .. يقول أخي -وكان وقتها في آخر الثلاثينات ومتزوجًا- وقتها اشتريت كثيرًا من المواد الغذائية لأننا كنا في سفر والبيت شبه خالٍ .. ولكنني صادفت والدي في نفس السوق ..

فامتلكني الخوف !! وبدأت أحاول التخفي عنه ! كلما ذهب لأحد الممرات ذهبت للآخر حتى خرج والدي من السوق !! كل ذلك حتى لا يراني اشتريت كثيرًا من المواد الغذائية فيوبخني عليها!!

موقف آخر وهو أننا كنا جالسين بعد صلاة المغرب في ساحة البيت (الحوش) وكنت وقتها طفلاً أسقي والدي قهوة المغرب التي كان يعتبرها أهم شيء بعد الصلوات الخمس !! عندها مد يده بالفنجان نحوي يريدني أن (أصب) وكان مغضبًا جدًا مني لأنني مارست شيئًا من الفساد في البيت .. !! لم أنتبه له حين مد الفنجان نحوي .. فظن رحمه الله أنني أتباطأ في خدمته متعمدًا .. فما كان منه إلا أن أرسل الفنجان نحوي والذي بدوره استقر في رأسي !! عندها هربت باكيًا لإحدى الغرف!!

موقف ثالث .. وهو أن بصري بدأ يضعف لما وصلت المرحلة السادسة الابتدائية تقريبًا .. فطلبت منه رحمه الله أن يأذن لي بشراء نظارة .. فقال: لا. وانتهى الحوار بعد كلمة (لا) !!

ثم بعد أشهر .. استجمعت نفسي- وطلبت منه الإذن (الإذن فقط) في شراء نظارة .. فالتفت إليّ بسخرية وقال: (ودك تصير مثل الجرادة !! ما فيه نظارات) !! .. بعدها صرت أصارع ضعف البصر ولم أشتر نظارة إلا بعد وفاته رحمه الله لما كنت في السنة الثالثة المتوسطة!!

رغم شدّته وهيبته رحمه الله .. إلا أنه كان رجلاً أسيفًا قريب الدمع ..

أدّى مرة صلاة الجمعة وكان الخطيب أخي .. فكانت الخطبة عن نعمة الولد الصالح على الأب والأم بعد موتهما..

فانخرط والدي أثناء الخطبة بالبكاء .. واستمر يبكي حتى انتهت الصلاة .. بل ولم يقف بكاؤه حتى وهو يمشي خارجًا من المسجد..

يشهد له كل الجيران بالمحافظة على الصلوات جماعة في المسجد..

كان يعظِّم حرمة الجار..

أظنه عفا عن كل من ظلمه .. لأنه كان يذهب في الأعياد باستمرار للسلام على أشخاص كان بينه وبينهم ما كان..

..

ذلك المرض الذي ألمّ به .. عاوده بعد سنينَ قليلة..

فأُدخل مستشفى القوات المسلّحة بالرياض .. ثم أجريت له عملية قسطرة .. ثم قرر الأطباء عملية تغيير بعض الشرايين..

كنت وقتها في المرحلة الثالثة المتوسطة .. بل وفي وقت الاختبارات..

..

أُجريت له العملية .. ولكن قدر الله وما شاء فعل..

لم يعد للحياة الطبيعية بعدها..

وإنما كان يفيق أحيانًا قليلة .. ثم يقول كلامًا غيرَ مفهوم..

بقي على هذه الحال قرابة الأربعين يومًا .. ثم مات..

مات رحمه الله..

مات أبي..

نعم .. مات وانتهت حياته .. ولكن بقيت أعماله الصالحة .. وعَقِبٌ لن يتركوا الصدقة والدعاء له بحول الله تعالى..

حقيرة هذه الدنيا..

وتتأكد حقارتها حين تفقد حبيبًا..

ولا أخفي القارئ الكريم أن هذا الحدث أثر فيّ كثيرًا .. كما الأثر الذي تركه فقد أمي رحمها الله .. صرتُ بعدها لا أبالي بما فاتني من الدنيا..

تولّدت عندي قناعة .. بأن خير ما في الدنيا العلم والمعرفة .. فأشغلت نفسي بهما .. وأسأل الله تعالى أن يثبتني على ذلك .. أما باقي متاع الدنيا فتافه!!

..

أهملت نفسي وقتها..

لامني الكثير على الإهمال الذي مررت به .. خصوصًا في تلك السنين القليلة التي تلت وفاة أمي رحمها الله .. كما بيّنت ذلك في ذكريات (عندما ودّعت أمي)..

سبحان الله..

هل تستحق الدنيا كل ما يفعله الناس لها؟ لا يزال هذا السؤال يراودني .. لكنه أقل من ذي قبل..

صرت أفكر كثيرًا في حالنا في الدنيا .. هل تستحق أن نعصي الله تعالى لأجلها؟

..

نعود لمرض والدي الأخير..

قبل أن يموت رحمه الله بيوم واحد..

اتصل بنا المستشفى وقالوا لنا:

أبوكم مريض جدًا ويمكن أن يفارق الحياة..

فجاء كل إخواني يركضون..

لكن حالته استقرّت..

فحمدنا الله تعالى وعدنا للبيت..

ومن الغد .. اتصلوا بنا مرة أخرى..

فجئنا نركض كما ركضنا بالأمس ..ولكن ركْضنا هذه المرة انتهى بنا إلى جسد طاهر .. مسجّى على السرير .. ملفوفًا بالقماش الأبيض..

تلك اللحظة كانت لحظة الفراق..

..

ومهما قلت..

ومهما وصفت..

فلن أرسم الصورة كاملة .. كما أراها الآن في ذهني..

ولكن .. هذه بعض المشاهد..

أحد إخوتي كان يضع غترته على وجهه ويبكي في المستشفى بصوت عالٍ كالطفل ..
ورجلان يمسكان به ليوصلاه لأقرب مكتب يستريح فيه..
أخ آخر يبكي .. ويبكي .. ويبكي .. وقد تغير لون وجهه..
باقي الإخوة يبكون..
أحد الإخوة بكى حتى بكينا لبكائه .. واستمر يبكي فيما أذكر لثلاثة أيام..
أذكر أن ذلك الأخ لم يكن ليستطيع أن يكمل معنا وجبة الغداء أو العشاء أحيانًا..
كنا إذا اجتمعنا على الطعام تذكر والدي رحمه الله .. ثم انخرط في البكاء وقام وتركنا ..
(الآن أنا أبكي .. أبكي وأنا أكتب ..) لأنني عدت لذلك الوقت!!
يا رب ارحم والديّ .. واجعل مستقرهما جنات النعيم .. وجميع المسلمين..
..
في تلك اللحظات..
اتصل أحد الأقارب وعرض إرسال والدي للخارج للعلاج..
فقال له أحد إخوتي: شكرًا لك .. لا داعي لذلك .. لقد ذهب للخارج بالفعل!!
..
إيييه يا دنيا .. يا عجيبة..
والله عجيبة هذه الدنيا..
هنا تفهم كيف كان محمد صلى الله عليه وسلم يمر عليه الهلال والهلالان ولم يوقد في بيته نار!!
هنا تفهم لماذا كان في ثوب عمر رضي الله عنه رقع كثيرة..
هنا تفهم لماذا ابن باز رحمه الله كان لا يلتفت لأي شيء من متاع الدنيا..
..
اللّهُمَّ ارزقنا اليقين..
..
من الغد .. تم نقل أبي للمغسلة..

دخلنا عليه .. وقبلنا جبينه رحمه الله..

وفي تلك اللحظة أذكر أن أحد إخوتي ضم أخًا لي .. ثم بكيا طويلاً .. وأصداء الصياح ترددها جدران المغسلة..

أخ لي جثا على ركبتيه في المسجد ثم رفع يديه يدعو بصوت عالٍ ودموعه تسابق دعواته !!

..

لحظات مؤلمة..

ولكنها سنة الله تعالى التي كتبها على الأولين والآخرين..

اللّٰهُمَّ ثبتنا على صراطك المستقيم..

....

أسأل الله تعالى أن يعينني على ما بقي من بر أبي وأمي رحمهما الله ..

.....

يوسف النملة

يوسف بن إبراهيم النملة

- مُحاضر في كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومذيع سابق في قناة المجد الفضائية.
- حاليًا مبتعث لدراسة الدكتوراه في إدارة الموارد البشرية في أستراليا/ سيدني.
- حاصل على بكالوريوس في الشريعة.
- حاصل على ماجستير في الفقه.
- حاصل على ماجستير في إدراة الموارد البشرية.
- مؤلف كتاب المبتعث السعودي والذكاء الثقافي.
- البريد الإلكتروني:namlah11@gmail.com
- تويتر: **http://twitter.com/#!/YousefAlnamlah**
- فيسبوك:

http://www.facebook.com/profile.php?id=100001633025435&v=wall

المدونة: **http://yousefalnamlah.wordpress.com/**

- بلاد الكنغر
- ٢٠١١/١١/١